فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٦

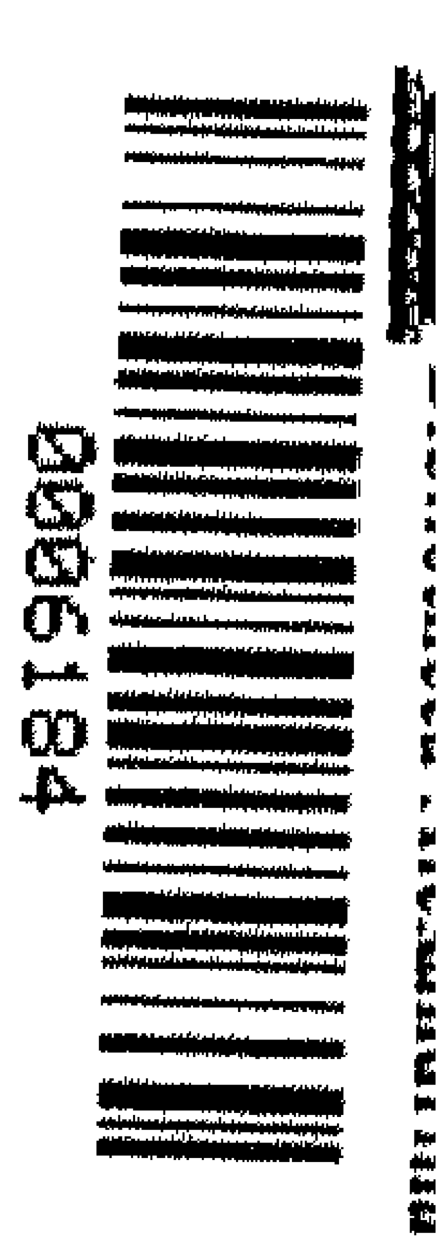
الهجاء

بقلم

الدكتور محمد سامي الدهان



دار المعارف



الهجاء

فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٦

الهجاء

بقلم

الدكتور محمد سامي الدهان

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر   دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج م ع

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

« غالبُ »لاتسعَ لنيل العُلى بلغت مجداً بهجائى فقفْ
وكان مجهــولا ولكننى نوّهتُ بالمجهول حتى عُرِفْ

« أبو نواس »

لعلّ الشر يُخلق مع الإنسان كما يُخلق الخير ، فنشأ الخصام والتنافس والحقد والضغينة والحسد والعدوان مع بدء الوجود ، على سعة الرزق ووفرة الخيرات واتساع الأرض . وظهر الشر على أشكال مختلفة وألوان متباينة وأسلحة شتى ، ومنها القول والبيان . فلما عمد الشعراءُ إلى المبارزة والمناقضة والمنافرة نظروا إلى خصومهم من وجوه عدّة وتناولوهم من نواحٍ كثيرة ، فأشفقوا حيناً وأغلظوا أحياناً ، وأسفّوا حيناً وارتفعوا أحياناً ، حتى كان من أقوالهم ديوانٌ كبيرٌ فى الأدب العربىّ يحملُ بين دفتيه ضروبَ الهجاء .

هذه الضروبُ فيها الوعيد والإنذار ، وفيها الذّم والاحتقار وفيها التندّر والاستهزاء ، وفيها السخرية والتقريع ، وفيها العتب والتأنيب ، تختلفُ حسبَ البيئة والعصر ، والتربية والعقل ، والثقافة والعلم ، فتتخذ طريقها إلى المهجوّ عن طريق العرض أو الأخلاق أو معايب الجسد أو المذهب أو الفرقة أو الدين . فتصبّ القول فيها على إبداع وابتكار أو تقليد وترسُّم ، عن صدق أو كذب . وهذه الألوان جديرةٌ بالدراسة والنقد لأنها من الأدب الغنائى الذى ينبعث غالباً عن عاطفة شخصية تُمليها ظُروف الشاعر الخاصة أو عواطفُ الذين يدفعونه إليها ، فيصنعها إرضاء لنفسه أو تلبيةً لقومه ، أو دفاعاً عن عشيرته ، أو يرتزق بها حرفة ومهنة فتدرّ عليه المالَ وتكسبه الشهرةَ فيعيش من ورائها كما كان يعيش بالمديح سواء بسواء .

ولا شكّ فى أن السبيل إلى الشهرة أو المال مختلفةٌ عند الشعراء ، بعضُهم

يصلُ عن طريق المدح فَيُغْدِقُ الصفات الصادقةَ أو الكاذبة لينال، وبعضُهم يصل عن طريق الذمّ والهجاء فتصله الصّلات والعطايا والهباتُ وينال رزقه كذلك. فالهجاءُ سوق رائجة منذ القديم وفن مطروقٌ منذ فجر الأدب العربى، لا بد من البحث فيه ودراسته على أنواعه وأقسامه.

ونحن حين نستعرض هذه الألوانَ نعرفُ أننا نغمسُ ريشتنا فى الشر ونقلّب أعيننا فى الأذى فتنقل من الأقوال ما يحلو وما لا يحلو، ولكننا نتعفّف فى كتاب أعد للناشئة لئلا نسوق إلى الشر. فَنُضرب عن ذكر ما تخجل العذراءُ والشادى من ذكره وقراءته؛ وفى الهجاء كثير منه، أسفّ بعضهم حتى نزل إلى الحضيض وورد عند الوحل، وسقط فى الماء الكدر الملوّث، وعلق بما لا يعلق به شرف أو نبل أو رفعة — كما قلنا. لذلك نستعرضُ ما خفّ حمله وسهلت روايته، وأذنت الآداب المتعارفة بقراءته وسماعه. وهذا ما جعل الطريق محفوفة بالأشواك محوطة بالمصاعب، ولكننا نريد الورد والنَّوْرَ لنجمعهما باقةً تمثل هذا الفن الغنائى الرفيع، ففيه رسم، وتصوير، ووصف، يسمو بأدبنا إلى مصاف الآداب العالمية، لذلك تمثلنا بمن استشهدنا بروائعه غير مبالين بأن تدمى أكفنا على أن تسلم آذاننا ونفوسنا، فى بحث لا نراه مستوعباً كل الاستيعاب، خوفاً من خطره على الآداب أو خشية من اللوم والعتاب، أو عجزاً عن الشمول فى شعر ندر أن اجتمع بين دفتىْ كتاب واحد، فجمعنا شتاته من أطراف الأدب، وحشدناه لهذا النقد والتحليل. وهدفنا وجه الله وخدمة الناشئة، وفقنا الله للصواب.

الدكتور سامى الدهان

دمشق فى ٥ يونية ١٩٥٧

مقدمة

١ ــ الهجاء فى الآداب العالمية

حمل الشاعر العبقرى منذ القديم لواء قومه ، فدافع عن أحسابهم وأعراضهم ، وتناول خصومهم وأعداءَهم سواء أكانت المعركة بين الأسرة والأسرة ، أم العشيرة والعشيرة ، أو الأمة والأمة . فكان قوله موضعَ الذكر والإكبار ، وكان قصيده نشيداً يُردّده الأنصار معتزّين فى خذلان الأعداء الفجّار ، وكان هذا القول من صور الهجاء ألوانٌ وضروبٌ ، وصور وفنونٌ ، تَعلقُ بالأدب الرفيع وتخلد على الزمان .

ويجمل بالأدباء العلماء أن يعمدوا إلى قصائد الهجاء فى الأمم فيعملوا على جمعها وترتيبها وعرضها ، لعلهم ينتهون من ذلك إلى دراسة هؤلاء الشعراء على اختلاف العصور والأمم منذ فجر الكتابة . ولكننا لا نجد كتاباً يستوعب هذا الجمع و يعرض إلى هذا النوع ، لنحكم كيف بدأ الهجاء طفلا ، وترعرع بعد ذلك حتى بلغ أشدّه .

فنحن نجهل كيف كان القدماء يهجون فى وادى النيل وفيما بين النهرين وفى شواطئ فينيقية ، وفى المدن البعيدة ذات الحضارة العملاقة . ذلك لأن أكثر أدبهم قد ضاع فى المسلات والنقوش وابتلعته الأرض من جديد كما ابتلعتْ مُبْدِعيه فغابت ألواحُ الخشب والحجر والقرميد ، وضاعت أكثرُ أوراق البردى والنقوش ، ففقدنا الصورةَ التى كان الكهان يلعنون بها الكفارَ ، وكان المحاربون يهجون بها الأعداء بعد الانتصار ، وخسرنا بذلك أكثرَ هذه النصوص الأدبية .

فقد عرفتْ بابلُ ، من غير شك ، فى مسرحياتها الدينية شيئاً يُشبه الهجاء ، وشهدتْ مصرُ فى قصائدها ألواناً فى اللعنة على سارقى القبور والكنوز ، وترنّمت الصينُ والهندُ وغيرهما بقصائد الهجاء فى ذمّ الشر وهادمى السلم والمعتدين على الأصنام .

أما اليونان فقد كانت أعيادُها شاهدة على سماع مسرحيات التمثيل القديمة ، وفيها ألواحٌ من الهجاء: فى ذمّ المرأة الفاجرة ، أو الآلهة الغادرة ، أو اللص الباغى ، أو التاجر البخيل . وقد وصلتْ إلينا بقيةٌ من هذا الهجاء تدلّ على ما ضاع ، تعرض علينا منه صورة نتمثله بشعر أرخيلوكوس[1] وقد كان إماماً لهذا الفنّ ، أعجَبَ به هوراس وقلده كثيرٌ من شعراء اليونان واللاتين . ونجده كذلك عند الشاعر سيمونيدس فى قصيدة يهجو بها بعضَ النساء ، فيصوّرها كأنّ اللهَ أخرجها من خنزير يسرحُ بنوها فى الدار على اضطراب وفوضى ، وتراهم طرحى على الأرض يتمرّغون فى القذر ، والأمّ تمرحُ بينهم كما تمرحُ الخنازيرُ فى حظائرها وتزداد شحماً على شحم . ويصوّر بعضَهن كأن اللهَ أخرجها من ثعلبة ماكرة فهى لا تغفل عن شىء شرًّا كان أو خيراً ، وصوّر أخرى كالكلبة فى حركتها ونشاطها تُطلق لسانها بالسوء ، ولا يُجدى فيها وعيدٌ أو تهديدٌ ، ثم صوّر امرأة كالبحر ذات طبعين مشرقة يوماً وعبوساً يوماً آخر . فالشاعر اليونانى رسم المرأة فى جسدها المترّهل المتضخم ، ورسمها فى خلقها الثعلبى ، ثم جعلها كالكلبة فى حركتها ، فقدم إلينا لوحاتٍ للجسد والخلق والحركة ، ولعله يضحكنا منهن فى سخرية جميلة خفيفة جمعتْ قوالبَ الهجاء فى القديم قبل الميلاد ، تُشبه ما استعمله العرب من هجاء فيما بعد .

وفى المسرحيات اليونانية صور للهجاء كذلك تصفُ الشذوذَ على ألوانه ، فتتناول البخلَ أو السمنَ أو الثرثرةَ ، وتُصيبُ الأخلاقَ أو حالات النفس كما تُصيب أوضاعَ الجسد على حدّ سواء . ولسنا فى صدد تفصيل الهجاء عند اليونان لنورد ما قالت الشاعرة سافو أو ماكتب أبيكارموس فى الطفيلى ، وإنما يحسن الرجوع إلى المصادر ليوازن بينها وبين ما رسم العرب بعد قرون عند الجاحظ والتوحيدى وغيرهما من صور الهجاء الفنى ، لنجد القرب والشبه على شكل غريب .

وفى شعر الملاحم عند اليونان والرومان كثيرٌ من هذه الأمثال فى الهجاء ، وردتْ سخيّة كما وردتْ فى شعر الهند والصين والفرس، ولكنها صيغت أحياناً

---

(١) قصة الأدب فى العالم ، لأحمد أمين وزكى نجيب محمود ، ١/١٦٧ .

على شكل قصص أو حكايات الحيوان أو حكم ساخرة . قريبة فى كثير من صورها مما جاء فى التوراة والتلمود والإنجيل تمسّ الإنسانَ العادىَ أو الشعبَ التائه ، أو تتناولُ العتاةَ الجبابرة ، أو الكفار المردة أو الشياطين . تقصّ سيرة آدم وما وقع لولديه ونوح وابنه ، والسيدّ المسيح وموقف الكفار منه ؛ وتلعنُ الشيطانَ وتصوّره فى أقبح حالاته ، فيقوم الهجاء على وصف بارع ساخر لعله من أروع الآداب الدينية والإنسانية على مرّ العصور .

وفى العصور الوسطى ، كما فى العصور الحديثة ، برع الهجاء عند مختلف الأمم فى فرنسة وإنكلترة وإسبانية وألمانيا وإيطاليا ، فى مسرحيات وقصص وقصائد يُعيينا تحليلها فى كتاب صغير وجيز . ولو قد فعلنا لظهر أن الأدب الإنسانى متشابه فى الأقطار ، وأن العقل والخيال والشعور متقاربة عند بنى الإنسان يتناولون المعنى على بُعد الدار وتقلّب الأزمان فيقع الحافرُ على الحافر ، وتتشابه الخواطر ، وليس العرب بمعزل عن هذه القوالب وهذه الصور . فهم كذلك أدباء إنسانيون اشتهروا بفنون الأدب الغنائى كما اشتهر غيرهم سواء بسواء .

٢ — الهجاء فى الأدب العربى

عاش العرب فى جزيرتهم الأولى على شكل ابتدائى فيما يبدو ، فقد عرض الباحثون لطبيعة العبث والنهب والسلب وركوب الأخطار . وصوّروا العربى فى صفات لا تعلق إلا بالقساة والمتوحشين [١] ورأوا أنهم كانوا يتنافسون على الرياسة ، وأنه قلما يُسلمُ واحدٌ منهم الأمرَ لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته ، فتعدّد الحكام والأمراء . ويضيف ابن خلدون أن العرب أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبُعد الهمّة والمنافسة . وانتهى غيرُه إلى أن العربى يثور على كل سلطة تُحاول أن تحدّد من حريته ولو كانت فى مصلحته . فهو ديمقراطى مسرفٌ فى الديمقراطية إلى حدّ بعيد ، وهو عصبى المزاج ، سريع الغضب يهيج للشىء التافه ، ثم لا يقف فى هياجه عند

---

(١) لخص المرحوم أحمد أمين آراء النقاد فى كتابه فجر الإسلام ، ١ / ٤٦ وما تليها .

غاية ، وهو أشدّ هياجاً إذا جُرحتْ كرامته أو انتهكت حرمة قبيلته . فإذا اهتاجَ أسرعَ إلى السيف واحتكم إليه ، وبادر شاعره إلى اللسان فسلطه فى شعر فيه الحماسةُ وفيه الهجاء المقذع يصوّر العدو هزيلا والمهاجِمَ ضعيفاً ، ويبعثُ فى نسبه الضعفَ وفى خلقه الصغار وفى شكله الزراية .

ومردّ هذا الخلق عند أكثر الباحثين إلى طبيعة الأرض من فقر وإجداب ، وضيق الأفق بالسكان ، فينتعشُ البؤسُ وتشتد الحاجة ، وتحمدُ الشجاعةُ والوفاء والكرم ، ويذمّ الجبن والخيانة والبخل ، وتتنخل الأنساب ، ويدُور الشاعر الهاجى حول هذه الموضوعات ليصيب مقتلا من خصومه ، ويسرع إلى القوافى والصور فيصبّ غضَبه على الولاة والحكام والأمراء والملوك ، ويتناول المذاهب والأديان والعقائد ، وينتصر لفريق على فريق ، كأنه فى حزب سياسى ، أو فى فرقة دينية ، أو فى دعاوة سياسية واجتماعية ، كصحافة اليوم .

وكان من ذلك كله ديوان فى الهجاء كبير ، برع فيه الشعراء فى القول والبلاغة والفصاحة ، فعرضوا للأنساب والأحساب والأعراض والأخلاق فصوّروها فى خيال صادق أو كاذب ، لا يبالون بما يعترض سبيلهم من سمْعة تتحطم أو كرامة تتهشم أو أرومة تتهدّم ، أوتسب ينهار أو عرض يفضح . فقد كان الهدف النصر على الخصم ليس غير ، يتناولونه من نواحيه فيبرزونه فى شكل مُخز ، ويضعونه موضعَ السخرية والحطة والضّعة ، فإذا بلغوا من ذلك ما يريدون انتصر هجاؤهم وظهروا على عدوّهم واشتهروا بين الأقوام وارتفعوا إلى ذروة الأدب .

وقد استعرضنا الشعر العربى فى هذا الباب فرأينا أنه على أنواع منه : الهجاء الشخصى يتناول المهجو فى عرضه ، ونسبه ، وخُلقه وخلقته ؛ والهجاء السياسى ، وهو ينال من القبيلة والسلطان والسياسة ؛ والهجاء الدينى وهو يعرض للعقيدة والمذهب والدين ؛ والهجاء الاجتماعى وهو يصف الأخلاق العامة وطبقات الأمة ويرسم انحلالها . ولعلّ هذا التقسيم والتبويب قصير الحدود ضعيف الشمول ، لا يضمّ كلّ ما قيل فى الهجاء . ولكنه قريب إلى أن يصوّر حال الأدب العربى على اختلاف العصور منذ الجاهلية إلى اليوم فى قوالبَ معدودة

َطرقها الشعراءُ منذ القديم وعادوا إليها يعبون منها وَيردون من ورْدها ، يخترعون ويبتدعون حيناً ويسقطون فى مواضع الحوافر القديمة أحياناً ، فليس ثمة ابتكار ولا ابتداع ، كلّ ذلك وفاق عبقرية الشاعر وتربيته وثقافته وبيئته ، وتبعاً لإخلاصه فى القول أو كذبه فيه .

والمهمّ أن الهجاء فنّ من فنون الأدب الرفيعة فى الأدب العربى قد ُيعين على تصوّر الحياة عند الأفراد وفى المجتمع وقد يساعد على تأريخ الحياة العربية حين يصدق الشاعر ، ويحذر المؤرخ فى بحثه حين يريد أن يعلم ما كان العربى يستحسن ويستقبحْ ، وما كان يذم ويقدح ، وأن يتبين ما كان العرب والمسلمون يجدونه من مثالب ومآخذ عند الشعب وعند الحكام ، وهو على ذلك يحوى ألواحاً من الصور تضاف إلى الآداب الإنسانية فى القديم والحديث ، َفتُغنِى متحفَ الهجاء فى الأدب العالمى ، وتكسبه روعةً لا تقلّ عن روعة الآداب الأخرى ، إنْ لم تزد عليها وَتبزّها وتسبقها إلى ميادين النبوغ والعبقرية والإلهام .

الفصل الأول

الهجاء الشخصى

الوقيعة فى الأعراض والأنساب

« كما كثرت أضدادُ المديح فى الشعركان أهجى »
قدامة

جرير — الفرزدق — بشار — أبو نواس — ابن الرومى —
البحــترى — المتنبي — المعرى — ابن عنين .

حرص العربىّ منذ نشأته على السمعة الحسنة والصيت الطيب ، فنزع إلى التعلق بالشرف والأرومة ، وتمسك بطيب النسب فافتخر به ، وأشاد بذكره ، وخاف أن يأتيه من قبل هذا عار يلحق به فلن ينجو أبد الزمان ، وعرف أن هذا العار لا يصيبه إلا من قبل المرأة . لذلك كان يحزن لولادة الأنثى فيما قالوا لأنها بابٌ يلجه الصّهر فينتقل بها عن سبيل الزواج أو السبى إلى قبيلة معادية ، أو إلى بؤس يُقلقه ، فسعى إلى التخلص منها بسبب ذلك وبسبب الفقر . والذكور يعينون آباءهم فى كلّ شىء . ويصبحون سنداً فى الحرب والقتال وهم فى ذلك على خلاف البنات ، موضع الفخر والاعتداد .

وعرف الشعراء ذلك فألحّوا أشد الإلحاح حين الخصومة والمنافرة والقتال على تناول المرأة بألسنتهم ، يضعون منها ليضعوا من قدر أهلها وأسرتها وعشيرتها ، فيصفونها بأسوأ الأوصاف ويبلغون بذلك حدّاً لا تسيغه الأذواق السليمة الحضرية اليوم ، يذكرون منها سوأتها ، ويصورون انحطاط عفتها بالحق أو بالباطل سواء أكانت زوجاً أم أمّاً أم شقيقة .

ولم يكن ذلك فى الجاهلية فحسب وإنما تبعه إلى عهد الإسلام وعهود الأمويين والعباسيين وعصور الانحطاط ، ولعلهم حين يقلدون فى فنّ الهجاء

يصيبون منها مقتلا إلى اليوم فى أحاديثهم وخصوماتهم السياسية والحزبية والدينية والاجتماعية . فهى ضحية هذه الألسنة المتصاولة تردُ فى الشعر والنثر فجاءة، حين يكون الحديثُ فى المهجوّ فيستحضرُها الشاعرُ أبداً ويخصها بغضبه وعدائه ، وهى لا تدرى من الأمر شيئاً ، ولا تعرف أنها موضعُ هذه العناية ، ولكنها مكرهةٌ على أن تخوض فى الميدان ، وأن تكونَ فريسةً للهجاء .

وفى كتب الأدب كثير من الشعر فى الهجاء يتناول المرأة على صور شتى ، بعضُها مقذعٌ حتى ما نستبيح لأنفسنا روايته هنا لأنه يعلقُ بالجسدية المنحطّة يَذكر منها ما لا يُذكر ويصف منها ما لا يُوصف ، فى خيال جامح يتصل بالفن حيناً ويبتعد عنه أحياناً . وسنعوج على بعض هذه الصور نستخلصها من الوحل الذى تغوص فيه ، ونعرضُ منها ما نستطيع أن نعرض بالحذف والتحوير ، لعلنا نصل إلى دراسة الطريقة التى كانوا يتناولون بها المهجو نفسه فيصوّرون النساء عنده أو يهجون المرأة وهم يقصدونها . وسبيلنا إلى ذلك مختارات الأدب ودواوين الشعراء ، وكتب النقد القديمة ، نقرؤها ونبرز ما كان من الهجاء فيها .

فى الحماسة أن عبد الله بن أوفى الخزاعى هجا امرأته فقال إنها نمامة بين الناس مثل كلب الهراش يهيج الشرّ ، تسعى بين جيرانها بالوقيعة والدس ، فتدّعى رؤية ما لم تر ، وتُسرف على ذلك فى الأكل والشراب فلا تعرف القناعة والصحة فيقول :

فإنْ تَشرَب الزق لا يَروْها ... وإنْ تأكل الشاةَ لا تَشْبَعِ
وليْسَتْ بتاركةٍ محرماً ... ولوْ حُفَّ بالأسَل الشُّرَّع [1]

وهى صورةٌ بارعةٌ لامرأة تشرب الزق كله فلا ترتوي ، وتأكل الشاةَ كلها فلا تشبع ، فأىّ جسد تحمل وأى معدة تملك ، ومن هى هذه الأنثى التى تسابق الرجال فى الهجوم على المأكل والمشرب ، ثم إنها تبز النساء فى الهجوم على المحارم كذلك ، فلا تغادر واحداً منها ، ولا يمنعها عن إتيانه

مانع ، تلك أنثى تشين الأخ والزوج والأب والابن ، فلا يتصل بنسبها رجل إلا لوّثت سمعته وشانت هيبته فالشاعر أصاب منها حيث أراد أن يصيب ، فبلغ الغاية أو كاد .

وذهب كثيرٌ من الشعراء بعيداً فى هذا الهجاء ، فتناولوا زوجات خصومهم وأعدائهم فجعلوا الأمهات عند المهجوين مطية للانتقام ووسيلة للتشفى ، فسقطوا على العورات وسموْها بأسمائها من غير تحرّج أو تأثم ، لعلّ ذلك يشيع بين الناس ويروج ذكر هذه النساء وتدور صفاتهن على الألسنة فيسقط المهجو ويقع فى شرّ هذه الأقوال . ولعلّ من أوقع الشعراء فى هذا الباب شعراء بنى أمية فى العصر الأول ، فقد دار بينهم هجاء ومناقضة ومنافرة وحمىَ بينهم الوطيسُ حتى كان للنقائض فى هذا العصر جولةٌ وصولة ، فملأت الكتب وشغلت الباحثين(١) منذ القديم ، واستهوت الشرّاح .

أما جرير فقد كان شرّهم على الإطلاق ، نال من خصومه فلم يتورّع ، وبسط لسانه فلم يقفه رادعٌ أو وازع . فقد كان بدويًّا جافًّا غليظَ الطبع ، يتناول السوءة باسمها فيقول فى هجاء التيم :

وتَيميَّة خزىٌ محل إزارهــا ....

وما محلّ هذا الإزار إن لم يكن الشين كله ؟ لقد عرّى المهجوات فى شعره ، وخاصة حين هجا هذه التَّيْميَّة فرأى جسدها ووصف موضع العفة منها ، ثم قال فيها :

وكأنَّ عُرْيَتها إذا واجهْتَها جُعْلان مُكْتَنِفان فَرْخ غُرابِ

ثم خاض فيما بينها وبين بَعلها فوصفَ ما تعافه النفسُ وتأباه الكرامةُ وتردّه العاطفةُ النبيلةُ ، ويستفظعه الشعورُ السليم ، ولن نَروى ما أسفَّ فيه ، ولكننا سنورد ما قاله فى نساء بنى عِقال :

وَجدْنا نِسْوَةً لبنى عِقَالِ بدارِ الخِزْىِ أغْراضَ الرُّماةِ
غَوَانٍ هُنَّ أخْبَثُ من حَميرٍ وأمْجَنُ من نِساءٍ مُشرِكاتِ

---

(١) صدر منذ زمن بعيد كتاب نفيس فى النقائض للأستاذ أحمد الشايب يحسن الرجوع إليه .

وَسَوْداءُ المُجَرَّد من «عقالٍ»   تُبَايعُ مَنْ دَنَا خُذْها وَهَاتِ

وَهكذا وضع جريرٌ نسوَة بنى عقال فى دار الخزى وجعلهن أغراضَ الرماة ، فهنّ أخبثُ من الحمير وأمجن من المشركات ، ثمّ جعل هذه المرأة تبايع كلّ من دنا من الرجال فى سوق العاطفة المأجورة . فاشتدّ عليهن ورماهنّ بالخبث والمجن والفحش ، فأوقعهن فى ألسنة الناس ، يشار إليهن بالبنان ، ويقصدن لأغراض السوء .

وَمعينُ جرير لا ينضَب فى هذا الباب ، فهو يُرْسِلُ الصوَر القبيحة متتاليةً فى ديوانه ، يَرمى بها خصومَه فلا يرحم النساء ولا يُشفق على شرفهن ، ولا يُبالى حين يُدْمى العرضَ ويخدش الكرامةَ والعفةَ ، فهو يريد أن يعرض المهجوَّ فى صورة تضحك الناسَ منه ، وتُزْرى بمقامه من الحسب والنسب والشرف . وكثيراً ما يشبّه المرأة بالخنازير أو بالحمير ، أو يصفها ضخمة البطن كريهة الرائحة بشعة الصوت لها خوار كخوار الثور . ويزيد على ذلك فيرسمها وقد خرجتْ للريب فى الليالى السود ، فهو يعتمدُ على الإقذاع فينزع عن المرأة حلاها من جمال ونسب وشرف ؛ فيقول فى نساء بنى تغلب قبيلة الأخطل :

نِسْوَانُ «تَغْلبَ» لاحِلْمٌ ولا حَسَبٌ   وَلا جَمالٌ وَلا دِينٌ ولا خَفرُ

وهنا يجرّدهن من العقل والدين والجمال والحياء ، فلا يُبقى على شىء من خصال المرأة الشريفة العفيفة الحصان . ويهجو التغلبيين فيرمى نساءَهم بسهام الشك والريب ، فيقول حين يتناول البعيث :

المُعْرِسِينَ إذا انْتَشَوْا ببناتِهِمْ   والدّائبينَ إجـارةً وسُؤَالا

فهل ترى أقذع من هذه الصورة ، حين تُنعم النظر والدقة فترى الآباء يُصيبون بناتِهم بعد أن تَعمل الخمرةُ فى الرؤوس فلا يَدرون ما يأتون وما يَجنون . وجريرٌ يُفيض فى هذا الباب فيتناول « تغلب » قائلا :

نُبِّئتُ «تَغلِبَ» يَنْكحونَ رِحالَهُمْ   وَترى نساؤُهمُ الحرامَ حَـلالا

وبذلك يرى للرجال هذا الشين المعيب ، وللنساء هذا الفعلَ المريب ، فلا

يسلم منه أبناءُ القبيلة كلها ، وكأنه يرسم أشنعَ خلية للعبث والمجون مما لا يقع في خيال ولا يتصوّره ذهن سليم .

والفرزدق لم يكن أقل سلاطة من جرير حين يصف النساء في هجائه ، فيصوّر قوم جرير وقد استسامت النسوةُ لكل شعب . وسكنت لكلّ مُغير ، فضاع الشرف وتاه الحسب . واستيقظت الشكوك والريب . وذلك إذْ يقول :

وتَمْشِي نسوَةٌ لبنى «كُلَيْب» بأفواه الأزقّة مُقْعيات
يَبعْنَ نفُوسَهن بكلّ فِلْسٍ كبيْع السُّوق مُخذْ مِنّى وَهاتِ

وكأنه ينظر في معانيه إلى قوْل جرير . بل كأن هذه الصورة سارت وحدها على لسان الشعراء الهجائيين . لا يجدون غيرها في التعبير والإذلال والإفحاش ، فالنساء في أسواق الخنا يبعنَ نفوسهن بكلّ رخيص . وسوقُ الفرزدق كسوق زميله رائجة فيما يبدو لهذه الألسنة المتطاولة . يخوض فيها بحراً من الشتائم ليرسم النسوة وقد أوغلن في الفحش . وسبحن في حياض الإثم . فهنّ غير محصنات . ولسنّ بريئات من الريب . قذرات لا يغتسلن ولا يبقين على طهر . ومهورهن جداء يُشْتَرِيْن بأبخس الأثمان . وقد يجعلُ الفرزدقُ ثمنَ النساء عَظْماً من غيرلحم . يعرضن من جسدهنّ على إخوتهن ما لا يُعرّض ، ويسرحن مع البقر في هول فلا يعرفن الحلى . ولم تثقب آذانهن ، وهنّ معورات يأكلن عند من يعرن قدورهن فيدسمن من طعام الجار وأكل الصدقات . ولعلّ الشاعر يعكس في هذه الصور ما كان يكره العرب لنسائهن من عوز وحاجة إلى جانب الخنا والفحش ؛ بل لعله يريد أن يصوّر سعيهن في سبيل الفجور عن حاجة وفقر . وهذا أبشع ما يجد العربيّ من هجاء .

ويلحّ الفرزدق على « بنى كليب » . فيصف نساءهن بما يرسل لسانه السليط فيقول :

نساءٌ بالمضَايقِ ما يُوارِي مَخازيهنّ مُنْتقِبُ الخمارِ
وما أبكارُهنّ بثيِّباتٍ[1] وُلدْنَ من البُعول ولا عذارِي

(١) الثيب : نقيض البكر ، والمرأة فارقت زوجها بموت أو طلاق .

فهنّ من الفجور بحيثُ لا يواريهنّ خمار ، ليس فيهنّ عذراء ولا شريفة فاضلة عفة ، وليس بعد هذا مطلب لشاتم أو مقذع . ودواوين الشعراء الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل تغصّ بهذا اللون من الإقذاع ، فليس للقارئ إلا أن يقلب صفحات النقائض فهو واجد فيها بغيته من صور لا نستبيح لأنفسنا روايتها هنا . وليست هذه الدواوين الأموية وحدها معين القراء وإنما يجدون فى كتاب الحماسة شيئاً كثيراً من هذا الضرب ، فقد قال شاعر فى هجاء أيّم من النساء :

تجودُ برِجْليْها وتمنعُ درَّها ... وإنْ كلبت منها المودّة هرَّتِ[1]

فهو يصمها بقلة الخير ، ويشبهها بالشاة التى تفلج رجليها فإذا أريد حلبها منعت ، فهى تساعد على كل رغبة للرجل ، غير أنها لا مودة لها ، ولا يبتغى عندها أسباب الحب والرحمة ، وإنما هى كالكلب تنبح وتهرّ .

فلما كان العصر العباسى وسرتْ لوثة الأعاجم وفسد الذوق العربى ظهر الفحش فى الهجاء على أسلوب آخر ، وكان من المبتدعين فيه بشار بن برد ، فقد كان يقول : « إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع » . فبالغ فيه وأسهب ، وذكر الأم والأخت والأسرة ، وجعلهنّ فى الخنا وجعل الرجال شهوداً عليهنّ فقال :

لِنِساءِ الزّنجيّ فيمنْ يُصلّى ... صَدقات يَفْضَحْنَ بنتاً وأخْتا

وهو ينزل على مهجوّه نزولَ الصاعقة كما نزل الجاهليون والأمويّون ، فيصف الأم فى حال لا تُرضى ولا تسر ، ويسرف فى الوصف حتى يذكر ما يقع لهذه المسكينة ، فيتصور أهلها نياماً ، ويتخيلها مع الريب تسير فى كلّ درب . ونحن حين نقتضب فى الوصف نخاف من الإثم فى إيراد كلّ ما وقع لديوانه من هذا الفحش المزرى ، فأقلّ عباراته تشمّ منها رائحة تُفسد الأنفَ والأسرَة والعرضَ فيقول :

كسُوبٌ بأخْتيْهِ وقينةِ تاجرٍ ... وما كانَ فى كتّابه بكسوبِ

(١) الدر : اللبن ، هرت : صوتت .

وللقارئ أن يتصوّر وقع هذا الكلام فى نفس المهجو ، حين يرى الشاعر قد وصمه بأختيه فجعله يكسب بعرضهما ويُثرى من ورائهما ، حتى ليتخيّل السامع أن ذلك جزءاً من حياة بغداد فى التجارة والكسب ، وتملك القينات آنذاك ، فيتناول تاجراً من التجار بهذا ، فيجعله خاسراً أبد الدهر .

وزميله أبو نواس مثله فى هذا الباب لا يكاد يقصر عنه فى تناول الأم والأخت فيقول :

نِيلتْ بأدْنى المهور أختهمُ ... قسْراً ولم يدْمَ أنْفُ خاطبِها

ويصوّر هذه الأخت رخيصة قد بيعت بمهر بخس دراهم معدودات وهى على ذلك فى ماض مريب لا يشرّف خاطبها ولا يثلج صدره . وأبو نواس يجعل للمرأة قصاداً وأخلاء ، فى كثرة عجيبة حتى ما يخلص القاصد إلى قلبها من الزحام فيقول :

أتيتُ فُؤادَها أشكو إليه ... فلم أخْلص إليه من الزّحام
فيا مَنْ ليس يكفيها خليلٌ ... ولا ألفا خليل كُلَّ عام
أظنكِ مِنْ بقيّة قوْم موسى ... فهمْ لا يصبرون على طعام

وفى هذه الأبيات صورٌ حضرية عباسية فيها ابتكار وإبداع بعيدة عن جفاف المثلث الأموى ، قد تقع فى القرن الرابع الهجرىّ ، بل إن المتنبي أخذ عجزَ البيت الأول فاستعمله بلفظه ومعناه وأعجبه برصفه ومبناه . والشاعر النواسى بلغ بها ما كان يريدُ من هجاء فانتهى بهذه المرأة إلى الحضيض من الشرف والدرك من السمعة ، وجعلها خليلة ألف بل ألفين من الرجال كلّ عام ، فأية امرأة هذه ؟ وكم عرَفتْ من الرجال حياتها ، ومن هى هذه المرأة التى لا تصبر على طعام واحد كقوم موسى الذين وصفهم القرآن الكريم ، واستعار الشاعر رسمهم لهذه المخلوقة فى باب العرض والشرف . والجديد فى هذا اللون أنه قصد إلى فجور المرأة وعبثها كما قصد القدماء ، ولكنه سلك إلى ذلك سبيلا من الصور المستحدثة ليس فيها ذكر الأعضاء وجفاف العبارة وقسوة اللفظ ، وإنما رمى إلى مجمل المعنى فأصاب الهدف ووقع فى النجاح .

ولعله يوغل فى التوفيق حين يقول :

إذا فكّرْتُ فى عرضـــ ـــك أشفقتُ على شعرى

وهذا لفظ طاهر لمعنى فاجر ، تسلق به الشاعر سلم العبقرية وهبط بمهجوّه إلى جحيم الخبث والمجون فلم يجد لشعره مجالا فى رسم هذا العرض لأنه يجوز الحدود والسدود ، وهذا منتهى الجودة والابتكار .

وسار ابنُ الرومى فى هذا السبيل نفسه فبلغ من الفنّ مبلغاً عظيما جاوز فيه مراتب زملائه ، فى دقة التصوير ولطف التعبير ، وبراعة التسديد إلى الهدف ، والنيل من خصومه فقد قال فى قوم يهجوهم :

صِلونى بأعْراضٍ لكمْ قدْ تمزّقتْ   تمزُّق أطْمارٍ على ابن سبيل

فانظر إلى هذه الصورة البارعة ، وتخيَّل هذه الأطمارَ البالية الممزّقة لتجدَ لها شبهاً فى أعراض القوم ، وقد تناثرت على كلّ جانب ، وتمزّقتْ من كلّ طرَف ، وكان مُقذعاً فى شعره :

كتَمتْهُ أمُّهُ آبــاءَهُ   فلهذا أنكر القوْمُ النَّسبْ
ليتهــا أنْبتهُ عَنْ آبائه   فلقدْ صُورّ فى خلق عجبْ
لمْ تزَلْ عرْس« حُريث» مَرْكباً   لجميع الناس تحنى للرُّكبْ

فأنت لا تجد لفظاً نابياً ، ولا عبارة جافة ، ولا ذكراً لما تستحى من إيراده ، وإنما تتصور فداحة الهجاء حين تعرف ما وقع لعرس الرجل وكثرة ما ورد على أمه فاختلط النسب وضاع موقع الأب ، لأن المرأة سارت فى كلّ ركب ومشت لكلّ خاطب ، وانحنت لكلّ طالب ، فأين منها الشرف وكيف يكون منها النسل الطيب ؟

وهو حين يهجو خالداً القحطبى فى قصيدة طويلة يقولُ فى أمه ما لم يَقُلْ شاعرٌ ، ويوغل فى الألفاظ البذيئة ، ونقتطف فى حذر شديد بعض أبياتها :

إذا ما وَنى عنها الزُّناةُ دَعتْهُمُ   شَقاشقُ من أرحامها الخضْر تهْدرُ

أحاشي التي تُنمى إليها وأنتحي ... بها أمَّك الأخرى التي سوف تظهرُ
عساك أفادتك الدَّعارةُ نخوةً ... فغرَّتك مني والجهولُ مُغمَّرُ

فهي تدعو إليها الرجال حين يلوون عنها وجه الطالب ، فكأن في جسدها ما لا يصبر على طعام واحد . وهذا من الدعارة بحيث يمسّ نخوة المهجو ويفعل في كرامته فعل النار في الهشيم والمعول في البناء .

وابن الرومي يسير إلى أبعد من هذا في هجاء الأعراض فيقول في ابن الخبازة وأمه « بوران » ، مالا تنفع معه الدّروع ، ولا يجدي فيه الحرص ، لأنه يمزّق كل حجاب ويُصيب من الشرف مرضاً عضالا :

شملَ الناسَ عدلُ أمكَ حتى ... سارَ فيهم كسيرُ جوْرِ « سدوم »
كثُرَتْ موبقاتُ بُورانَ حتى ... ضَاقَ عنها عفوُ الغفور الرحيم
لوْ أطاعتْ كما عصَتْ لاستحقَّتْ ... خِلَّـــة الله دوْنَ إبراهيم

وما هذا العدل الذي وزَّعته بوران على الناس حتى شملَ كلاًّ منهم بنصيب ، وأصاب كلاًّ منهم بحصّة ، وهل ثمة عدل في الدنيا يصل إلى الناس جميعاً ، وهل ثمة امرأة تكفي الناس جميعاً . إنها « بوران » التي كثرتْ موبقاتها حتى ضاق عنها عفو الله العظيم ، وعمت معاصيها حتى بلغت في عددها حسنات نبيّ الله إبراهيم الخليل . وليس هذا فحسب وإنما سار الشاعر في في سبيله يصف هذه المرأة ويصوّرها للناس في أمثال وتشبيهات يعيينا سردها هنا ، وإنما نستجيز لأنفسنا رواية بيتين آخرين يقول فيهما :

ناقضتْ « مرْيمَ » العفافَ فلما ... قاومتهـــا بالغيّ والتـــأثيم
حمدت في الزّنى تناسُلَ « حـــوَّا ... ءَ » فحـــوَّاءُ عندَها كالعقيم

وبذلك يبلغ قمة الإقذاع إنْ كان للإقذاع قمة ، ويصل إلى ذرى الهجاء في النيل من مهجوّيه ، فيرسم الأعراض رسماً جامحاً لا نجدُ له مثيلا في الأدب العربي كله ، مما يحمل ابنَ الرومي إلى مصاف السبابين الهجائين في الأدب العالمي . ولو استبحنا لقلمنا أن يجول في هذه الصور التي خلفها الشاعر في بوران ، لنقلنا صورتها تفعل في المحاريث ، وتطيع الشيطان

الرجيم ، وتطوف الليل كله ، حتى ايراها كلّ شخص فى الظلام كالجرثوم ، فهى فى كلّ منعطف ، وهى فى كلّ سبيل ، تنتظر دعاة الفجور وشاربى الخمور ، بل إنها لتدعوهم إليها فى أخريات الليل البهيم كما تفعل الساقطات اليوم بعد عشرة قرون فى عواصم الغرب أو العالم الجديد ، حين تخلو الطرق من السابلة أو يزول حجاب الحياء تحت الأنوار الهزيلة ، ولا يكتفى ابن الرومى بالمرأة نفسها ، وإنما يَرمى بناتها بالفجور والفسق فيقول فيهن :

رَافِعاتِ الأقْدَامِ بالليل يَدْعو نَ على المحْصَنات بالتَّأثيم

فتصوّر هاته الفتيات وقد لحقن بأمهن فى سيرتهنّ ، فوقعن فى لسان الشاعر ، وجعلهنّ رافعات الأقدام كلّ الليالى ، ينتظرن ولا من مجيب فيتناولن المحْصَنات من النساء بالدعاء . لعلّ الله يجعلُ للرجال سبيلا إليهنّ . ولقد صَور الشاعر منظرَ المرأة رافعة الأقدام فى كثير من شعره ، فجعلها ترفع رجليها تحت الدجى كأنما تستغفر الله بأقدامها بدلا من الصّلاح والدعاء الطاهر . وهذا الشاعر على إقذاعه فى الصورة مبتكر فى التعبير ، يرتفع عن مستوى زملائه فى الهجاء الفنى البارع .

والبحترى أراد أن يسير فى هذا السبيل وأن يبلغ إلى الأعراض والنيل منها ، ولكنه أفحش وأسفّ ، ووقع فى تعابير البدو وكان جافًّا غليظاً تتقزز النفس من سماع ألوانه وأصواته ، فلم يكن له من الابتكار ما كان لغيره ، ولم يسلم لسانه فلم نستطع رواية شىء منه على شدة نظافته فى المديح وغيره .

وأما المتنبى فقد طرق الهجاء على أساوب جرير والفرزدق سواءً بسواء ، فذكرَ كل شىء واستباحَ كل تعبير ، وقلدَ البدوَ فى جفاف الصّورة والتعبير ، وهجاؤه فى « ضَبَّة » مشهور مذكور فى ديوانه ، نقتطع منه ما يمكن للقارئ أن يتصفحه عابراً حين يقول فيه :

وَأرْخصُ الناس أمًّا تبيع ألفاً بحبَّهْ
كلُّ الفعول سهامٌ لمرْيم وهىَ جُعبهْ[1]

---

(١) الجعبة : إناء تجعل فيه السهام .

وَليسَ بَينَ هَلُوكٍ وَحُرَّة غير خطبه[1]

فهى رخيصة تُباع كما بيعت الجاهليات — ممنْ رأينا قبل قليل — فى سوق الخنا ، وهى كجعبة تتلقى السهام ، وهذا جديد فى الهجاء لعصره أخذه من وصف المعارك ورسم النصال تتكسر على النصال . وقد عمد إلى طريقة القدماء فى وصف النساء وأضافَ إليها طريقته فى التعبير ، فقال فى هجاء ابن كيْغلَغ :

يَحْمى ابنُ كيْغلغَ الطَّريقَ وعرْسُه ما بينَ رجْليْها الطريقُ الأعْظمُ

وهو فى ذلك شبيه بقول الفرزدق فى أم جرير حين قعدت للناس كطريق مُعْمَل ، أو كالربعى حين قال :

أنا زَوْجَةُ الأعمى المباحِ حَريمُهُ أنا عِرْسُ ذى القرْنين لا الإسكندر

وَدخل أبو العلاء المعرى فى هذا الباب كرهاً للمرأة وتحاملا عليها ، فتخيل لها كل فجور ، وألصق بها كل فسق ، ونزع عنها الثقة حتى حين تنتقلُ من بيت إلى بيت فقال :

أعــوذُ بالله منْ وَرْهاء قائلة[2] للزَّوج إنى إلى الحمَّام أحْتاجُ
وَهمُّها فى أمور لو يُطاوِعُها كسرى عليها لشِينَ الملك والتَّاجُ

ذلك لأنه يريد أن نكتفى منها بأن نجعلها قعيدة الدار ترتل آى الحمد والإخلاص فحسب ، فإذا خرجتْ جلبت العار إلى البيت ، وزوجةُ كسرى نفسه لو فعلتْ لكانت سقوطاً له دونه هجوم الجيوش واستعار الحروب وذلة الانكسار ، ورأيه فى ذلك يعمّ جنس النساء لا امرأة بعينها ، لأنه يكره هذا النسل كله ، والمرأة سبب لوجوده وتناسله ، فهى أم الخبائث والمصائب :

يَلِدْنَ أعادِياً وَيكنّ عاراً إذا أمْسَيْن فى المتهضِّماتِ

فهن غير مأمونات فى غدوّهن ورواحهنّ ، حتى فى بيوت التلاوة وفى

---

(١) الهلوك : الحسنة التبعل لزوجها .

(٢) الورهاء : الحمقاء .

كنف الشيوخ المكفوفين من أمثاله ، ذلك لأن صوتها يبعث الدعارة والشهوة وشنيع الأفعال .

ودخل هجاء الأعراض على يد ابن الحجاج العراقى وابن سكّرة الهاشمى وابن بسام البغدادى باباً لم يدخله من قبل ؛ فقد أوغل هؤلاء فى الألفاظ والتعابير ، وأسفّوا فى المعانى المنحطة السافلة حتى لتمجّ النفس من سماع صورهم وتشبيهاتهم وأغراضهم فى النساء ، فقد يُقبل أحدهم على أمه فينال منها ما ينال الغريب من الحليلة ، وينتهى إلى وصف ذلك وصفاً فاحشاً ، لا تستقر العينُ على سطوره لكثرة ما يثير فى الشعور من ألم الانحطاط ووحشية العمل . وفى كتب الأدب — وأسفاه — كثيرٌ من شعرهم ، أوردت « اليتيمة » كومةً مخيفة منه ، ما نجيزُ رواية بيت واحد منها . وفى دواوينهم المخطوطة شعر يشيب له الطفل وتكذبه الأذن ، وتأباه اللغة العربية ، وينكره حتى أبعد المنحطين فى الأخلاق فلا يرضونه لعشيقاتهم أو خليلاتهم المتاجرات بالحب . ولعلّ هذا الشعر ساق الشعراء بعدهم إلى الرضى عن مثل هذه الألوان فاستخفّوا ظلّها فى قصائدهم ، وطرقوها فى هجائهم ، فكان لابن عنين فى هذا الفنّ تعرّض للنساء ورسم لما يقع منهنّ فى ألفاظ واقعية ، ومفردات واضحة ، لا يتكلف إليها الإشارة وإنما يستسهل إيراد العبارة ، كأنه كتب الديوانَ لنفسه لا للناس ، فهو يقول فى ابن عساكر يهجوه :

يا ابن الدّجاجة كلُّ الناس كان لها ديكاً فأنت ابنُ مَنْ حتى أناديكا؟

ونحب أن نقف عند هذه الدجاجة فى التعبير عن المرأة السافلة الداعرة ، لأنه تعبير تلقفته اللغات الأجنبية فرمت به أمثال هذه من النساء حين يتصدين للرجال فى زوايا الشوارع المظلمة يبغين على حبهن أجراً ، ويستبدلن كلّ ساعة ديكاً جديداً . فابن عنين رمى هدفه كما يرمى الغربيون ليطعن فى نسب عدوه وليرمى أمه بالفجور والتقلب فى أحضان الرجال .

ويقول الشاعر كذلك فى هجاء ابن القلانسى :

ولكننى إنْ رمتُ إتيانَ عرسه « تمتّعْتُ من لهو بها غير مُعْجِلِ »
وكَمْ ليلة قَدْ بتُّ جذلان بينْهُ « وبينَ هضيم الكشْح ريّا المخلْخَلِ »

فهو يأتى الزوجة ولا يجد تعبيراً لحاله إلا أبيات امرئ القيس قديماً ، فيصفُ منها ما وصف الشاعر الجاهلى ويصمها بما سار على الزمان من فضيحة ذلك الضال الهائم الذى ضيعه أبوه صغيراً ، وافتتح شعرنا بغزل فيه عبث ومجون .

وابنُ عنين يتناول الأختَ والأم حين يهجو رجلا من دمشق فيقول :

ذُو طَرَفيْن إذا نسبْتهما ... يَحارُ فى ذاك كلُّ ذى لُبِّ
فالأختُ والأم منْ بنى شَبَقٍ ... والأبُ والابنُ من بنى كلْبِ

وبذلك تناول الأسرة كلها ، وجعل نسب النساء إلى شبق ، وفى اللفظة لذع كثير ، ومجاهرة بالوصف وتحد للأخلاق . وليس هذا غريباً عنه ففى ديوانه منه سطور يندى لها الجبين ، وما نستطيع أن نُبْعد أكثر من هذا وإنما نحيل إلى غير هذا الكتاب . لأننا نريده نظيفاً فى بحث يجرّ إلى غير النظافة عند تصوير هذا اللون . والذهاب مع الشعراء فى أقوالهم إلى حيث يسفون ، فلا ينفع مع شعرهم حذفٌ أو إضمار . ذلك لأنهم قد يعرضون فى هجائهم لشذوذ الرجال مع الرجال أو النساء مع النساء ، بُغية الحطّ من قيمة المهجوّ ، وتناول عرضه . ويستطيع الذين يستطيبون الدراسة فى هذا السبيل أن يلوذوا بدواوين بشار وأبى نواس وابن عنين ، أو من جاء بعدهم حين سقطت الأخلاق خلال عصور الانحطاط .

ونحنُ حين عرضنا إلى هذه الناحية أردنا أن نصوّر ظلمَ الشعراء للمرأة ، وهم فى سبيل هجاء الرجل ، أو ظلمهم للنساء وهم يهجمون عليهن لغاية يريدها الشعر والخيالّ . ويأباها الواقع والشرف . ولعلّ ذلك من الأسباب التى بغضت الشعر إلى كثير من الأئمة وصرفتهم عن قرضه ، ونزلت به إلى ساح الكذب والوقيعة . وخلفت لنا فيه صفحات لا تشرّف السامع والقارئ ، ولكننا نظرنا إليها هنا من ناحية فنّ الهجاء الشخصى وتناول العرض بالرسم والوصف ليس غير ، ونبرأ من تبعة ما يقع من وراء ذلك .

الفصل الثانى

الهجاء الشخصى

٢ ـ عيوب الخلقة والسحنة[1]

« فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل
والتهافت . . فأما القذف والإفحاش
فسباب محض »

الجرجانى

الفم ــ الأسنان ــ المنخران ــ العينان ــ الذقن ــ
الشعر ــ الشارب ــ الجيد ــ العور ــ الصلعة ــ اللحية ــ
القصر ــ الصوت المنكر ــ اللون الأسود ــ الأحدب .

رأينا أن هدف الهجاء هو الحط من قدر المهجو فى غالب الأحيان ، وذلك بأن يجعله الشاعر ضحكة للسامع وتفكهة للناس فيصوّره بصورة مزرية . وقد شهدنا من خلال الصفحات الماضية كيف سعى الشعراء إلى إحصاء الرذائل ، فوجدوا أن أقواها إصابة للمهجو فى المحيط العربى هو تناوله من حيث العرض ، وأنّ أشدها قتلا لسمعته هو تناول زوجه أو بنته أو أمه أو أخته ، فبلغوا من ذلك مبلغاً لم يقع فى الآداب كلها كما وقع فى الأدب العربى ، حتى لقد يظنّ ظانّ أن قومنا اختصوا بمثل ذلك . ولكن شعراء الهجاء عندنا لم يقفوا عند هذا الميدان الضيق ، بل تعدّوه لحسن حظنا إلى ميدان آخر وهو رسم المهجو نفسه فى صورة ساخرة ، صادقة أو كاذبة ، تقرّبه من الدمامة ، وتلفت النظر إليه ، وتثير الضحكات لتخيله ، فألحوا على عيب فيه ضخموه ، وانصرفوا إلى نقص فيه وَسَّعوا أمره ، كما يصنع الرسامون الهزليون اليوم ــ الكاريكاتوريون ــ فقد صرفوا ريشتهم البارعة إلى القصَر ، أو دمامة الوجه ،

---

(١) السحنة والسحناء : الهيئة واللون .

أو عرض الأكتاف ، أو طول الأنف ، أو كبر المنخرين ، أو كراهة الرائحة ، أو نتوء العينين . وجعلوا ذلك مدار شعرهم فى الهجاء والتندر على المهجو ، فأثاروا العيب الخلقى وأرادوه ظاهراً بارزاً يثير الزراية ويشيع النكتة ، من غير رحمة أو شفقة ، كما فعلوا حين اخترعوا للمرأة صوراً داعرة ، لعلها هى منها براء ، بل لعل الرجل من عيوبهم براء كذلك . ولسنا نبحث أمر الصدق أو الكذب فقد قيل ما قيل ، ونحن نحصد القول ، ونعرض له على أنه فن من فنون الأدب ليس غير ، لا نعيب المخلوق ولا نتشفى منه ، إن صحت العلة ، لأننا لن نجرؤ فى التطاول على معاتبة الخالق .

ونلاحظ أن شعراءنا قد تناولوا فى أوصافهم المرأة والرجل على حد سواء ، فصوروهما تصويراً مقذعاً ، وقد تلفت الشاعر أبو تمام إلى هذا فخص فى حماسته باباً بهجاء النساء ومذمهن ، نريد أن نفتتح به هذه الأوصاف لقرب عهدنا بالحديث عن عرض المرأة ، فنقطف هنا من الثمار ما يسهل عرضه من غير لوم — كما فعلنا قبل قليل —

لقد حمل الشعراء منذ القديم على الحليلة والحليلة حملة قاسية ، وصوروا بشاعتهما تصويراً دفعهم إلى أن يقسموا بالأيمان المغلظة أن لايجتمعوا بهن بعد ذلك ، عزوفاً عن المناظر البشعة وبعداً عن الدمامة المؤذية . ويحسن بنا أن نقف عند هؤلاء وقفة قصيرة . فقد قال شاعرهم يهجو إحدى النساء واسمها « جوهر » :

أَلْمِمْ بوَطْبَاء[1] فى أشْدَاقها سعَةٌ   فى صورة الكلب إلا أنها بشرُ
حَدْباء وقصاء[2] صِيغَتْ صيغةً عجباً   وفى تَرائبِها عَنْ صَدْرِها زَوَرُ

فهى عظيمة الثديين ، واسعة الأشداق تشبه الكلب فى صورتها ، وإن كانت من البشر ، حدباء قصيرة العنق ، غريبة الخلق ، عجيبة الصنع فى هزالها ، قد ازور صدرها ، فباتت على أبشع صورة . وذلك لأن العرب فيما يبدو كانوا يحبون الثديين الصغيرين والفم الضيق والقامة المستقيمة ، لذلك جمع

---

(١) الوطباء : العظيمة الثديين .

(٢) الوقصاء : القصيرة العنق ؛ والترائب : جمع التريبة ، وهى موضع القلادة .

لها الشاعر كلّ القبائح وحرمها من المزايا فكرّهها إلينا ، وقال شاعر آخر يصف وجه امرأة أخرى :

بدا فبدتْ لى شقةٌ من جهنّم فقمتُ ومالى بالجحيم يدان
وغادرْتُ أصحابى الذين تخلّفوا بما شئتُ من خزى وطول هوان
وما كنت أدْرِى قبلها أنّ فى النسا جحيماً أراه جهْرة وترانى

فلم يجد صورة لها قريبة من وجهها إلا صورة الجحيم . على ما كان العرب يتخيلونه من عذاب وسياط ونار موقدة ، ورأى أنها قطعةٌ من جهنم أفلتتْ إلى الأرض ، وراحت تمشى بين الناس تحملُ الشناعة والقباحة والعذابَ ، لذلك هرب منها نجيًّا ، فلا صبر له على النظر إليها والبقاء بقربها . وهرب زميل له من امرأة أخرى قد سلخت فى العمر سنين عدة فقال فيها :

فإنْ أتوْكَ وقالوا إنها نصَفٌ[1] فإن أمثَلَ نصفَيها الذى ذهبا

وهكذا تولى أحسن نصفيها من العمر والجمال ، وبقى القبح والشرّ . ومثله شاعر آخر وصف امرأة حوتْ من الصفات مالا تجده إلا فى متحف الدمامة ، فقال :

رقطاء[2] حدباء يُبدى الكبد مَضحكُها قنواء بالعرْض والعينان بالطّول
لها فمٌ ملتقى شدقيْه نقرتُها كأن مشفرها قد طُرّ[3] مِنْ فيل
أسنانُها أضعفتْ فى خلقها عدداً مظهّرات[4] جميعاً بالرواويل

فهى رقطاء حدباء ، لها أنف فى طوله كأنف الخنزير ، وفم واسع يلتقى شدقاه عند نقرة قفاها ، كأن مشفرها قد قطع من فيل . ولها أسنان زوائد على عدد أسنانها ، تجعل منظرها كريهاً بشعاً إذا ما فتحت فمها لكلام أو ابتسام ، فكأنه مغارة قديمة قد تدلى من فوقها وتحتها أعواد ملتوية هى أسنانها .

---

(١) النصف : المرأة الوسط بين الحدثة والمسنة ، وقيل التى بلغت خمساً وأربعين وقيل خمسين سنة .

(٢) الرقطاء : المنقشة بالبرش ، والقنواء : طويلة الأنف ، وإذا كان بالعرض كان كأنف الخنزير .

(٣) طر : قطع (٤) مظهرات : جعل لها ظهارة كما يجعل للمرش ظهارة ، والراؤول . والرائل سن زائدة تنبت للدابة تمنعها من الشراب والقضم ، ولعاب الدواب جمعها رواويل .

ويبدو بذلك أن العرب كانوا يُولون الوجه أكبر عناية ، لأنه وحده يستقبل الناظر فيجذب أو يدفع ، ويرسل السحر أو يبعث السحر ، ولذلك أكثروا من وصف الفم والأنف والجبين والذقن ؛ فقال شاعرهم يرسم لوحةً كرهها فى وجه امرأة :

ذَقَنٌ ناقصٌ وأنفٌ غليظٌ وجبينٌ كساجة القُسْطَارِ (١)
قامة القُصْعُل(٢) الضعيف وكفٌّ خنصراها كذِينَقِ القَصَّارِ (٣)

فرسم منها الذقن الناقص ، والأنف الغليظ ، والجبين الواسع ، والقامة الضئيلة ، والكف كمدقّ الثياب ، فجعلها بعيدة عن جمال الجنس اللطيف غريبة الأعضاء ، غليظة فى كلّ شىء ، واختار لها الألفاظ والمفردات بما يناسب مقامها وصورتها . وقد وصف شعراء آخرون أشياء أخرى تبعث الكراهية والنفور . فعرضوا للصوت ، والرأس والشعر ، واللحية ، واللعاب ، فى الرجال وفى النساء ، فصوّروا هؤلاء وهؤلاء بأشكال مزرية مضحكة ، حتى إنهم رسموا الثآليل فى الوجه والجمة والأفخاذ ، مما لا نجيزُ روايته هنا ، وإنما نورد أبياتاً لشاعر مخضرم فى هجاء أمّ ولد له :

لها شَعْرُ قِرْدٍ إذا ازّينتْ ووجهٌ كبيض القطا الأبرش(٤)
وثَدْىٌ يجولُ على نحرها كقِرْبة ذى الثلة(٥) المعْطِشِ

فهى إذا تزينت بدتْ فى شعرها كقرد سمج ، ووجهها كوجه القطا الأبرش قد توزعت فيه نقطٌ بيض ، وثديها يجول لكِبره على نحرها ، ويهتزّ لضخامته كما تهتزّ قربةٌ متدلية قد أعدّت لضأن كثير . وأنت ترى أن هؤلاء الشعراء لم يُغفلوا صفة قبيحة فى وجه أو فى قامة أو فى مفاصل وأعضاء إلا جمعوها وحشدوها وأبدوْا تقززَهم منها ، فكانوا فى أوصافهم بارعين ، وكادوا يلحقون بالوصافين

---

(١) الساجة : لوح الصيرفى الذى يقوم عليه كفتا الشاهين إذا وزن به — والقسطار : الصيرفى .
(٢) القصعل : القصير والضئيل .
(٣) ذينق : مدق القصار الذى يدق عليه الثوب .
(٤) برش برشاً : كان على جلده نقط بيض فهو أبرش وهى برشاء .
(٥) الثلة : الضأن الكثيرة ، وجماعة الغنم ، جمعها ثلال وثلل .

فى كتاب الوصف ، لو أنهم كانوا يريدون الخير أو يقصدون الوصف للوصف . ولكنهم فعلوا هذا للنكاية والتندّر ، لم يرسموا واقعاً فيما نرى ، ولم يصوروا منظراً للإعجاب به ودفع الناس إلى حبه ، وإنما قصدوا إلى الهجاء فوقعوا فى هذا الباب ، وتمثلنا بهم فى رسم العيوب الجسدية ، خلال السنين الأولى لأدبنا العربى .

فلما تقدّمت الأيام كان الحطيئة بارعاً فى هذا الهجاء للخلقة ، حشد فى ديوانه صوراً كثيرة لكلّ من رأى وصادف ، حتى إنه رسم وجهه وخلقته فقال :

أبَتْ شَفَتَاى اليوم إلا تكلّماً ... بسوءٍ فما أدرى لمَنْ أنا قائلُه
أرى لى وجهاً شوّه اللهُ خَلْقَه ... فقُبِّحَ مِنْ وَجهٍ وقُبِّح حامله

وذهب هذا البيت مثلا فى هجاء الشاعر لوجه يحمله ويكره أن يقابل به الناس لشذوذه وتنافر الأعضاء فيه . وأما الفم فقد رأت الزوجة فيه جيفة الخنزير وفضلت على القعود معه خوض المنايا فقالت :

لوَ انَّ المنايا أعرَضَتْ لاقتحمتها ... مخافةَ فيه . إن فيه لداهيهْ
فما جيفةُ الخنزير عند «ابنِ مُغْرِب ... قتادة» إلا ريح مسك وَغاليهْ
فكيفَ اصطبارى يا «قتادةُ» بعد ما ... شممتُ الذى من فيك أثأى حماضيه

فانظر إلى هذه الزوجة تفضل جيفة الخنزير . وتراها مسكاً وغالية إذا قورنت برائحة الفم عند زوجها . فهى لا تصبر عليه . ولا تريدُ البقاء معه وإنما تهربُ من بيت هو فيه لأنه يبعثُ الكراهية والشماس .

وقال جريرٌ يهجو أم الأخطل . ويصور منخريها :

غليظةُ جِلد المنخرين مصنَّةٌ ... على أنف خنزير يُشَدُّ نِقابها

فيرسم جلدَ المنخرين فى غلظة . ويرى فيها أنفاً كأنف الخنزير قد شدّت عليه النقاب . فليس فى النظر إليها جمال أو دلال أو نشوة . وإنما بشاعة تفوق الخنزير بعد أن عرفنا ما للخنزير عندهم من قدر وحرمة !

وجرير يهجو النساءَ التغلبيات فى صورة تُبعدهنّ عن كلّ حسن فيقول :

إذا ما رأيتَ اللّيتَ من تَغْلبيّة ... فقُبِّح ذاك الليتُ والمتوّشحُ
تَرى محجراً منها إذا ما تَنَقَّبَتْ ... قبيحاً وما تحتَ النقابين أقبحُ

فيخيل إليك أن كل تغلبية بشعة وأن عنقها قصير ، وأن عينيها من القباحة بحيثُ لا يجملهما نقاب ، ما تحت النقابين أقبح وأشد شرًّا ودمامة . وهو يلحّ على جمال المنخرين فيرى عند الرجال التغلبيين أهل الأخطل شعراً كثيراً فى مناخيرهم ، وكان العرب يتقززون منه وينفرون . وينظر إلى أم الأخطل فيقول :

لمْ يَجر مُذْ خُلقتْ على أنيابها ... ماءُ السواك ولمْ تمس طهورَا

فاعجبْ لشاعر يتصل بهذه المساوئ فيثيرها ، ويَلصقها بالمهجو ويخرجها إخراجاً حسناً — كما نقول اليوم — فى صورة بارعة تُضحك الناسَ من هذه الأم ، حين يتصوّرون أسنانها السوداء لم يمرّ بها ماء السواك ، وهى امرأة علمها الإسلام نظافةً وطهارةً وطيباً ، فلم تلتزم أمراً منها ، وغدت بغير طهارة أو دين ، وغريب أن يلحّ فى ذلك ، فيهجو القبحَ فى كلّ شىء حين يقول :

وكأنمــا بَصَقَ الجرادُ بليتهــا ... فالوجهُ لا حسناً ولا مَنضُورَا

فتصوّر هذا الجراد يبصقُ فى مجرى العنق ، حيث يطيل الرجل النظر ويستمد الجمال ، ويستوحى السحر والطيبَ عند المرأة . بل إنه يصوّر الأسنان وقد لصقت باللثة ، ومالت الأنياب على الأسنان فأصبح الضرس كالحافر . ويرسم الذقن فى أسوأ شكل فيشبه به أعضاء الحمار ، ويصف البطنَ تقرقر بالعدس والفول ، فتعجب لخيال الشاعر وبُعد نظره ، وذهابه فى جمع شتات القبح ، وحشره فى صورة واحدة . كأنه رسامٌ يعشق الجمال ويكره ما عداه ، بل ينفر منه فيثيره ، ويقول فيه هذا اللون من الوصف والتندر ، والتشفى والانتقام ، لو وضعت فى لوحة لانقلب الناس أمامها ضاحكين .

وأبو نواس الحسن بن هانئ ، يهجو البشاعة والقبح فى صور بارعة كذلك تستدعى الإعجابَ بريشة هذا الرسام المتفنن الذى بلغ قمة الشعر فى كثير من أبوابه ، فقد حلق فى فن الوصف والرسم — كما رأينا فى كتاب الوصف —

---

(١) الليت : مجرى القرط من العنق .

وليس غريباً أن يجلّى فى وصف الجسد الكريه والجسم الدميم ، فقد عشق الجمال على ألوانه كذلك . وكلف به على ضروبه فلم يغادر فى أنواعه وصوره ميدان الإبداع والابتكار . ولقد رأينا أنه برع فى هجاء المرأة وتصويرها ، فرسم أعضاءها رسماً واقعيّاً يسخر منه ليضْحك السامعين . فانظر إليه حين عرض للفم والثنايا فقال :

والفمُ منْ ضيقه إذا ابتسمتْ　　كأنه قصْعةُ . المساكين
ولها ثنايا تحكى ببهجتها　　وحسنها ألسن الموازين
والجيدُ زين لمنْ تأملهُ　　أشبهُ شيء بجيد تنين (١)

وهذا جديد فى الهجاء لم نعرفه لشاعر قبله ، ذلك لأنه عرّض للقبائح فجعلها فى موضع السخرية كأنه يمدح فإذا به ينقلب ضاحكاً ، يشبه بما حوله من أشياء لا تخطر على بال ولا تمر بخيال ، فالفم كقصعة المساكين ، والثنايا كألسن الميزان ، والجيد كجيد تنين ، فكيف تكون صورة هذا الوجه فى عالم الجمال والجلال ، اللهم إنه مسخها مسخاً وعرضها شوهاء ، كأشنع ما دار فى لسان وقام فى بيان . وقد زاد فى مكان آخر فعرض للجسم كله ، وقال فى امرأته :

شخصُها شخصٌ قبيحٌ　　ولها وجهٌ مُسَولّى
ولها ثغرٌ كأنّ اللهَ　　غشّاهُ بكحل
تصفُ النكهة منها　　جيفة فى يوم طلّ
ردْفها طستٌ ولكنْ　　بَطنها ركزة خلّ (٢)

فأنتَ تتصور الوجهَ مولّياً ، والثغر مغشى بكحل ، وريحَ الفم كالجيفة إذا أصابها طل فنشر الكراهية ، وردفها كالطست ، وبطنها كالوعاء فيه خلّ . فأىّ رسّام هجاء ساخر كان ذلك الشاعر العباسى فى اختياره لألوان التشبيه المقذعة وصور الجسد المفزعة ، يغط ريشته فى ميدان الخلّ بدلا من الخمر ، والجيفة فى يوم طلّ بدلا من زقّ خمر فى يوم غائم . ولا شك فى أن

---

(١) التنين : حية عظيمة .

الناس يهربون من هذه النكهة ، ويستبشعون هذا الردف ، حين يعرضه النواسى هذا العرضَ المضحكَ الموجعَ فى قوالب تخالها للمديح فإذا هى للتشنيع — كما قلنا — .

وهو حين يصفُ المغنيات يرسمهن كالخنافس خلف العيدان ، وغناؤهن يهيج الزمهرير ، فيقول :

إذا ما كنتَ عندَ قيان مُوسى ... فعندَ الله فاحتسب السرورا
خنافسُ خلف عيدان قعودٌ ... يُطوّلُ قربُها اليومَ القصيرا
إذا غنينَ صوتاً كان موتــاً ... وَهيجن به عليك الزمهريرا

ولن نقف عند الصوت وما يُطيل من يوم قصير ، وما يبعث من مقت وزمهرير . وإنما نقف عند الخنافس وهنّ خلف العيـــدان . لنتخيل هاته المغنيات البشعات وقد تقاصرن وتطاولن للعزف والغناء فى مجلس يريده الشاعر للطرب فإذا به يبعث الكرب ويدفع إلى الهرب .

وأبو العتاهية يعرض للون الأشقر فى أهل البدو فيشكك فى الحسب والنسب ، ومثله أبو تمام يعرض للون الأصفر فلا يرى فيه سقماً وإنما يجد فيه شقاءً ليس بعده شقاء لمن يتعب ويجهد .

وأما ابن الرومى فهو أكثر الشعراء تعرّضاً للخلقة والقسمات بالهجاء والسخرية . فهو بارعٌ فى ريشته الهزلية . يظهر المعايب والمساوئ فى لغة صافية لا تجد فيها لفظة نابية إلا ما ندر فهو ينم عن روح رسّام كاريكاتورى فى الهجاء يكاد يكون عالميًّا — كما نقول اليوم — فألواحه تُضحك الثكالى وتبعث الدمع فى العيون لشدة ما تثير من إغراق فى التندر والإضحاك . وليس للمهجو إلا أن يتوارى عن العيون . وأن يختفى وراء الأبواب . فلا يظهر للناس خوفاً من أن يعرفوه برسمه ويتبينوه بصورته التى أبدعها ابن الرومى هديةً للقبح . ولعلّ ابن الرومى جاوز حد الصدق والواقع فيما كان يرسم . فنظر إلى الناس من خلال نظارة سوداء كما قالوا . ولم تقع عينه إلا على مشهد بشع ومنظر ينفر . فقد كان صاحب نظرة خاصة إلى الجمال ، تؤذى نفسه مشاهد الدمامة . وسنطيل الوقوفَ عنده لنستعرضَ من ديوانه هذه الصورَ التى خلدها فى متحف السخرية والهجاء . قال فى أبى قرّة :

أقِصَـــرٌ وَعــورٌ وَصَلَعٌ فى واحــد
شَـــواهدٌ مقبــولةٌ ناهيــك من شَواهد
تُخـــبرنا عن رَجل مُستعمل المقافــد
أقمـــأه القفــد فأضْ حى قائماً كقاعد [١]

فجمع فى لوحة واحدة قصراً وعوراً وصلعاً لرجل واحد ، وجعله قميئاً تزدريه العين وتعافه النفس ، ومع ذلك يضحك القارئ ، لخفة هذا الشعر فى الوزن واللفظ والصورة ، فيشعر بروح الشاعر تضحك لما تصفُ قبل أن يضحك الناس . ويلح أبو نواس على الصلع فيقول :

يَا صَلَعة لأبى حفص ممردة كأنّ ساحتهــا مرآة فولاذ
ترنّ تحتَ الأكف الواقعات بها حتى ترنّ بها أكناف بغداذ

ولعل الذين أصابهم صلع شديد يجزعون من وصف الشاعر ، ويتلمسون مكان ذلك من رءوسهم خوفاً من أن يصيبهم رشاش هذا الرسم ، فهو يشبه الرأس بمرآة فولاذ ترنّ تحت الأكف فتدوّى بها أرجاءُ بغداد على سعتها . ونلاحظ أن ابن الرومى يشتهى أن تقع الأيدى على المهجوّ فى أكثر أوصافه ، كأنه لا يقنع بما يرسل عليه لسانه من ضربات ، يريد أن يشرك بها غيره . وهو حين يقولُ فى اللحى لا يقلّ عن وصفه للصلع فانظر إلى صورة اللحية بزيشة ابن الرومى :

إنْ تَطلْ لحية عليك وتَعرُضْ فالمخـــالى معرُوفـــةٌ للحمير
علقَ اللهُ فى عذارَيكَ مخـــلا ةً ولكنهـــا بغير شـــعير
لوْ غـــدا حُكمها إلىّ لطارتْ فى مهبّ الرياح كل مَطير

فهى أشبهُ بالمخلاة عُلقتْ فى عذار هذا الرجل ، ولكنها خالية من الشعير فلا نفعَ فيها ، ولو كان أمرُها إليه لأطارها فى مهبّ الرياح كل مطير ، ولأصحاب اللحى الطويلة الشاذة أن يروا رأيهم فى هذا الشعر ، وأن يتلمسوا فيه موقعَ الانتقام والتشفى . وقبح المنظر يوحى إلى هذا الشاعر ألواناً وألواناً من الهجوم والتسلى يقول فيها :

تَخاله أبداً من قُبح مَنظره مُجاذباً وَتراً أو بالعاً حجرا

(١) أقمأه : أى صغره وأذله ، القفد : صفع القفا بباطن الكف .

كأنه ضفدع فى لجة هرمٌ إذا شدا نغماً أو كرر النظرا
لو كان لله فى تخليدنا قدرٌ مع قربه ما أردنا ذلك القدرا

ولا يشفق ابن الرومى على هذا المغنى حين يشبهه بالضفدعة فى شكله ، أو كأنه بالعٌ حجراً ، بل إنه يكره الخلودَ بقربه ويتمنى البعاد عنه ولو بالموت . وذلك لأنه زرىٌّ الشكل ، بل منكرُ الصوت ، فهو حين يغنى يحشرج فيقول فيه :

يفتحُ فاهُ من الجهاد كما يفتحُ فاه لأعظم اللقم[1]
أبحٌّ فيه شذوذ حشرجة منظومة فى مقاطع النغم
نبرتُه غصــةٌ وهزّتــهُ مثل نبيب التيوس فى الغنم

والفم ينفتح للصوت والغناء كما ينفتح للقم الكبيرة سواء بسواء ، فيبدو مثل كهف مظلم تنطلق منه الحشرجة إثر الحشرجة ، يقطعُ النغمَ ويهتز كالتيس ، فلا يُطرب ولا يُسكر ، وإنما يبعثُ مع الخمر شعوراً بالقتل كأن السامع يشربُ دمه فى كأسه . وابنُ الرومى أطال النظر فى المغنين لعصره ، فرأى القبحَ فى وجوههم ، والشذوذ فى أصواتهم ، والنكرَ فى أعناقهم حين تهتز وتتلوى ، فوصف قينة تغنى :

تضغطُ الصوتَ الذى تشدو به غصّةٌ فى حلقها مُعترضه
فإذا غنتْ بدا فى جيدهــا كل عرق مثل بيت الأرَضه[2]

وأرانا حركاتها وهى تضغط الصوت ، فتبدو العروق فى جيدها كما تبدو الأرضة ، فتلاعب بالمعانى والأشكال ، وقرنها بصور محتقرة ليضعف من شأن المهجو وليعرض موضعَ العيب فى الحركات ، ويصوّر ببراعته ولطف تخيله للغناء القبيح صورة لا تشبهها الصور الجامدة عند المصورين القدماء ، وإنما تجمع إلى ذلك الألوان والحركات كأحدث ما يصنع التصوير الفنى فى عصرنا . ويعجبك قوله فى رجل طويل الأنف :

وإذا نهضتَ كبا بوجــ ـهكَ للجبين المعطس[3]

(١) نب التيس : صاح عند الهياج ، والنبيب هو الضجيج فى الصوت .
(٢) الأرضة (بفتحتين) دويبة تأكل الخشب .
(٣) المعطس . الأنف ج معاطس .

إنْ كان أنفك هكـــذا فالفيـــلُ عندك أفطسُ
وإذا جلست على الطريــ ـق ولا أرى لكَ تجلسُ
قيـــل السلام عليكمـــا فتجيبُ أنتَ ويخرسُ

إنّ أنف الفيل بالنسبة إلى أنفه أفطس ، فإذا جلس للسلام قال الناس : السلام عليكما ، كما قالوا بعد ذلك بقرون لأنف « سيرانو » الشاعر على لسان « إدمون روستان » ، فجعلوا للأنف كياناً مثل كيانه لشدة طوله وعظم مكانه . وقد وصف الذين قبله الأحدب فما علقوا ببعض نبوغه ، ووصف الغربيون الأحدب بعده على لسان « فيكتور هوجو » فما صنعوا مثله فاسمعه يلقول :

قصرتْ أخادعه وطال قذاله فكأنه متربص أن يصفعا [1]
وكأنمـــا صُفعتْ قفاهُ مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

فهو يرسم هذا الأحدبَ فى قصر القفا حتى لكأنه صُفع مرة فانتظر أن تعود إليه الكف ، فلبث حيث هو ينتظر أبد الدهر . وهذا القول مشهور سائر يحفظه الناسُ جميعاً له ، ويعترفون بيده فيه ، وقد قال العقاد : « ومثل هذا الشاعر يهجو حيث شاء بأداته الحاضرة كالرسام الذى يحمل مصورته الشمسية ليلتقط بها المناظر التى تروقه وتسترعيه أينما كان [2] » بل تمنى أن ينقل المصورون ديوانه بريشتهم ليكون من ذلك مجلدات ضخام من خير ما تستنبطه القريحة الفنية من صور الهزل والجدّ ومعانى التهجين والتحسين .

ولن نوغل فى نقل صوره الهاجية عن الأكول يقتلع الطعام كالرفش أو كالسيل أو كوكيل يتيم ، أو اجترار الأضراس تتكادم وتتحرك كالرحى ، لأن ذلك يبعدنا فى الحديث ، ويضعنا بحيث نتحيز لابن الرومى ، والقدماء عرفوا له قيمته فى هذا الباب وقرنوه بدعبل وجعلوهما علمى الهجاء فى الأدب العربى [3] .

---

(١) الأخدع : عرق فى العنق فى موضع الحجامة ، والقذال : جماع مؤخر الرأس .

(٢) مراجعات ، ص ١٥٦ .

(٣) قال أبو العلاء المعرى :

لو نطق الدهـــر هجا أهله كأنه الرومى أو دعبـــل

ونحن نريد أن ننتقل إلى زميله ابن المعتز ، فقد صنع فى الهجاء كذلك صنيعاً جميلا ، وسخر وتسلّى وتندّر ، فقال فى عجوز :

عجوز تَتصابَى وهى بكرٌ بزعمها ومُذْ ألف عام قد وَجى خدَّها الواجى
تَرى شعرَها تحتَ القناع كأنهُ ضَفائرُ ليف فى هدية حجاج

فأبدى صورة لها خالدة على الأيام لأنها تقع فى كلّ عصر ومصر ، وتدور بين الناس ؛ فلا تشعر بما يبدو على الأفواه من بسمات أو من سخر ، تتصابى وقد خدد الزمان فى وجهها سطور العجز والجهد . وشعرها تحت القناع كالليف يهديه الحجاج . وثمة عجوز أخرى علق بوصفها فشبه شعرها بالقطن المنفوش ثم قال فى ريقها :

خبيثة ريح الريق تحسب هُدهداً يبيضُ بفيها ثاوياً ويُعشِّش

وفى هذا إقذاع وبراعة ، حين نتخيل الهدهد وقد جعل من فمها عشه ، فأودع فيه ما يملأ الفلاة رائحة خبيثة كريهة .

والمتنبى تَسلم راية الهجاء فى عصره ، فوصف كافوراً بسواده وغلظ مشفريه . فقال .

وأسـودُ مشفرهُ نصْـفه يُقـالُ له : أنتَ بَدْرُ الدجى

فبالغ على عادته وجعل مشفر الرجل يعادل نصف جسمه . ومع ذلك يقول له الناس متملقين : أنتَ بدرُ الدجى ، ثم وصف جسمه وبطنه فقال :

منْ كلّ رِخْوِ وكاء البطن منفتق لا فى الرّجال ولا النسوان معدود
إن امرأ أمَةٌ حبلى تـدبرُه لمستضامٌ سخين العين مفؤود

فهو رخو البطن منفتق . لا هو فى الرجال ولا هو فى النساء . بل إنه امرأة حُبلى فى هيئته وسمنه . ومع ذلك يحكم مصر كلها ويدبّر أمرها . ويملكُ الزمام فيها . فيالتعاسة هؤلاء المحكومين . ويرسمه بعد ذلك بقوله :

وتُعجبنى رجلاكَ فى النعل إننى رأيتُك ذا نعل إذا كنتَ حافيا
وأنك لا تَدْرى ألونك أسـودٌ من الجهل أم قدْ صار أبيض صافيا

ويُذكرني تخييطُ كعبك شــقَّه ومشياك فى ثوب من الزفت عاريا
وَمثلك يُؤتى من بلاد بعيــدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

فلا فرقَ بين كافور وهو حاف وبينه وهو لا بس ، لأن لون قدميه كلون النعل لشدة السواد فيهما ، وكأنه شقق كعبه ومشى بجسد أسود ، يلبس الزفتَ حين يتعرّى ، وهذا مما يُضحك الثكالى وربات الحداد البواكى . فكيف لا يتخذ منه المتنبي صورةً للتندر والسخرية ، فيشهد الناس على أنه عبدٌ خصيّ مجلوب من الحبشة ، زرىّ الشكل ، بشع المنظر ، قبيحُ الصورة . يتلهى الرائى بالنظر إليه كما يتلهى الغلمان بالنظر إلى الحيوان الغريب فى حديقة الحيوان . فهو ضحكة الدهر على لسان هذا الهجّاء .

وأصابَ المتنبي ابنَ كيغلغ فى شكله ووجهه فقال فيه :

وجفونُه ما تستقر كأنهــا مطروفةٌ أو فُتَّ فيها حصرمُ
وإذا أشار محدثاً فكأنـــهُ قردٌ يقهقه أو عجوز تلطمُ

فهو يحرك جفونه مراراً فى عصبية دائمة ، كأن عينيه مطروفتان أو كأنّ الحصرمَ قد عصر فيهما ، فلا يفتأ يُغلقهما ويفتحهما . وهو كثير الإشارة لا يكاد يستقر فى مجلسه ، يقوم ويقعد ، ويضطرب ويصيح . فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم ، وهو لشدة عيه يشير بيديه حين لا يستطيع الإفصاحَ بلسانه ، وأين منه الإفصاح بل أين منه الوقار والهيبة . ثم يفيض عليه من لسانه فيقول :

مَا زلتُ أعرفه قرداً بلا ذنَب صفراً من البأس مملوءاً من النزق
تستغرق الكفّ فَوْدَيه ومنكبه وتكتسى منهُ ريحَ الجورب العرق

فيجعله شبيهاً بالقرد فى شكله ، ولكنه بلا ذنب ، ويؤكد أنه صفر من الشجاعة ، وكله طيش ونزق ، ويرسمه صغير الحجم ، دميم الجسم حتى لكأن أكف الصافعين تستغرق فوديه ومنكبيه جميعاً ، وتعود الكف بعد ذلك بريح نتن خبيث هو ريحُ جسده الكريه . أقرب ما يكون إلى ريح جورب عرق قد ملأ المكان فساداً ونتناً .

وابنُ سكرة الهاشمى، أنشد كثيراً فى هذا الباب ، ولكنه أسفّ فى ذكر الأعضاء ، فضيّق علينا سبيل الاستشهاد ، وقد قال فى متحدّث يهجوه :

وإذا تحدث أحدثتْ لهواته فترَى الأنوف تلوذ بالأردان
وترى أخادعهُ تعطّ كأرنب َعكفتْ عليه َمناسرُ العقبان

فرسم الحديثَ والأخادعَ وجعل لهما صورة عجيبة لا يحسنها غيره فى مثل هذا اللون ، وقد أكثر من مقاذره فى الهجاء فقال فى عدوّه وقد حشد له أصنافَ القبائح :

يا نَتْنَ رائحــة الطبيــ ــخ إذا تغير فى القدورِ
يا عشّ بيض القمل َفــ ــرّخَ فى السوالف والشعور
يا بغضَ تدخين الحشا فى الصوم من تخم السحور[1]
يا كل شىء متعــب ُمتعقــد صَعب عسير

ولعلنا نأنف من أن نشّم رائحة هذه كلها مجتمعة ، لأنها تقزز النفس ، فرائحة الطبيخ وقد تغير ، وعش بيض القمل ، والحشا بعد تخم السحور ، تبعث من الروائح المنتنة ما لا يتصورها عقل ولا يجمعها خيال . ولن نستزيد فى التعليق على هذا اللون ولن نستكثر منه هنا ، ففى « يتيمة الدهر » أصنافٌ لمن يستطيع أن يتحمل قراءتها وتفهمها والصبرَ عليها .

وللشريف الرضى فى هجاء رجل أبياتٌ ُنوردها لنبين عن روح العصر :

وَمروّع لى بالسلام كأنمــا تسليمه مما يمض وداع[2]
ُتفقا بمنظره العيون إذا بدا[3] وَتقِىءُ عند غنائه الأسماع
َتزْوى الوجوهَ تفادياً من صَوته حتى كأن سماعه إسماع[4]

وهو فى هذا قريبٌ من ابن الرومى إذ يجدُ فى سلام الرجل ما يمض ، وفى

---

(١) جشأت نفسه جشأ : نهضت إليه وارتفعت وثارت للقىء .
(٢) أمض : أوجع وآلم .
(٣) فقا العين : كسرها وقلعها .
(٤) أسمع فلاناً : شتمه ، والإسماع : الشتم .

منظره ما يقذى ، وفى غنائه ما يقىء الأسماع ، لذلك يزوى وجهه تفادياً من صوته ، لئلاّ يجرحَ أذنه أو يخدشَ سمعه . وصوّر الشاعرِ الغزى وجهَ خصمه فجعله منتقباً بالكلوح قال :

وإنْ بَدا سَافراً لناظره   فوَجهــه بالكلوح مُنتقبُ[1]
للجمع والمنع قائمٌ أبداً   كالفيل لا تثنى له رُكبُ

وهذه الصورة مزرية ، تشبّه الرجل بالفيل ، حين يقوم وحين يثنى الركب فى الجمع والمنع ، ووجهه عابسٌ مكشرٌ ، بشع كريه المنظر . وللشاعر الحلى فى وصف فم المهجو صورة قريبة مما رأينا يقول :

فَمٌ ليحيي ريحهُ منتنٌ   لم يُرَ يَوماً مثله قط
لو أنه عضّ على فَأرة   لعافَ أن يأكلها القط

فتصوّرْ رائحة فم تزيد فى نتنها على رائحة الفار ، وتصوّرْ هذا القط الذى يلتهمُ الفأر أنى رآها ، فإذا نزلتْ من فم الرجل عافها لأنها سقطت من ثُقب لم يعهد الحيوان أكرهُ منه أو أشد خبثاً .

وقد سار المعاصرون فى هجائهم على مثل هذا الإقذاع فوصف شاعرهم فى الشام لحيةَ خصمٍ له فقال فيها : -

لا يأخذُ المشطُ منهــا   فيهــا الفصوصُ الغوالى
كم شعرَة فــوق أخرى   تبــدو كروث البغــالَ
المسكُ فيهــا مُضَــاعٌ   بَينَ الخنــا والضــلال

يرى أبشع منظر فى هذه اللحية على شدّة المسك فيها ، فشعراتها كروث البغال منظراً وريحاً . وللشاعر الدمشقى خليل مردم صورةٌ يسخر فيها من رجل رآه :

أحفى شوَارِبه ولحيتهُ معاً[2]   أرأيتَ رأس التيس ساعةَ يُسمطُ

---

(١) كلح وجهه كلوحاً : تكشر فى عبوس ، أو عبس فأفرط فى تعبسه .

(٢) أحفى شاربه : بالغ فى أخذه ، واستقصى قصه . وفى الحديث أمر أن تحفى الشوارب و يعفى عن اللحى .

وَمشي العرَضْنةَ حاسراً عن رأسه[١] فكأنه إذ ذاكَ قرْدٌ أشمطُ
ويُشيرُ إذْ يَهدى بَعشر أصابع وَيدُور مثل أبي الرّياح[٢] ويلبطُ
وكلامه متقطـــع بســـعاله كالعير يبهر فى النهيق فيعفطُ[٣]
فكأنه بضَجيجـــه وعجيجـــه ذو جنـــة بقيوده يَتخبطُ

وهذه الصورة المعاصرة تكاد تقع من اللفظ والأسلوب والصورة مواقع الشعر القديم . فهى تشبه رأس الرجل برأس التيس المسموط وتجعله فى شكله كالقرد ، ثم ترسمه كاللعبة المعروفة . أو كالعير ينهق حين يسعل ، بل إنه كمجنون يتخبط فى قيوده . وللشاعر نفسه صورة أخرى فى هذا اللون يقول فيها :

جهمٌ كظلّ الصخر مَنْ يَرهُ يَقل هوَ وَجهُ مَيتْ بالسخام مُحنط[٤]
فإذا تَمعر أو تكشر ضاحكا[٥] فكأنه من وجهـــه يَتغوّطُ
وإذا تنحنحَ فى الكلام حَسبْته ثوْراً يخوُر على العليق وَينحطُ[٦]

فهو مفرطٌ فى سماجته ، غليظٌ فى هيئته كظلّ صخرة ضخمة ينضح كالميت طُلى بالسخام وحنط ، فإذا ضحك كشر عن وجه كأنه يتغوط ، وإذا تكلم فكأنه ثورٌ يخور على عليقه وهو يصيح بصوته المنكر . ولعلّ سماجة الرجل لا تختلف فى هذا الوصف عن سماجة زملائه من غلاظ الجسد والأكباد جُمعت له البشاعة كما جمعت لأقرانه قبله ، فتناولها المعاصر بالألوان المتندرة الساخرة ، فقال حافظ إبراهيم فى رجل عظيم البطن ضخم البدن :

عَطّلتَ فنّ الكهرباء فلم تَجدْ شيئاً يعوّق مسيرها إلاكا
تَسرى على وجه البسيطة لحظةً فتجوبُها وَتحارُ فى أحشاكا

---

(١) العرضنة : البغى فى المشى من النشاط ، وإذا كانت مشيته فى شق فيها بغى من نشاطه .

(٢) أبو الرياح : شخص صغير من حديد يوضع فى أعلى البنيان ويدور باتجاه الرياح ، وقد عرف قديماً فى شعر البحترى .

(٣) البهر : تتابع النفس وانقطاعه من الإعياء ، وعفطت الضأن : نثرت بأنوفها كما ينثر الحمار ، وعفط ضرط .

(٤) السخام : سواد القدر ، والفحم .

(٥) تمعر : تغير ، وعلته صفرة ، وأصله قلة النضارة .

(٦) نحط : صوت من الإعياء .

ولن نذهب بعيداً فى الاختيار والتمثيل ، فهذا أمرٌ يطول ، ونحسب أننا عرضنا لألوان الهجاء فى هذا الباب ، وحشرنا أنواعه ، وجمعنا الأقوال فيه ، فأبرزنا لكلٍّ صورةً تخيلها الشعراء ، ولم نغادر فيما نرى كبير أمر مما يُهجى به الإنسان إلا رويناه ، اللهم إلا ما لم نستبح سرده هنا . ولعلنا جعلنا فى هذا المتحف الكاريكاتورى ألواحاً تفيد فى فهم الطريقة التى سلكها أدباؤنا على العصور فى شعرهم ، فجاءوا بروائع البيان وخلدوا بقولهم على الزمان ، ذلك لأن هذا الفنّ صعب المراس ، شديدُ الأسر ، قوى الوقع ، نذيرٌ بتوريط القائل وإيقاعه فى حبائل المهجوّين ، وربما أودى بالحياة ، فلا يَقبلُ الناسُ جميعاً قولا فى مثل هذا الإقذاع إذا كانوا يستطيعون الانتقام لكرامتهم وأنفسهم . وقديماً ساق مثله إلى قتل الشعراء وسجنهم وتعذيبهم لعلهم يرتدعون أو يرعوون ، أو يتوبون عن هذا القول ، ففيه حطٌّ من قيمة المهجوّ ، وتندّر به وسخرية وتهكم وضحك ، فيسير ذكره على الأفواه تبتسم إشفاقاً حيناً وانتقاماً حيناً آخر . ولكنه الفنّ على كلّ حال يبدو كآلة التصوير تلتقط ما ترى من ألوان وظلال ، بل إنه كريشة المتفنن تجسم وتضخّم كيف تريد لتبلغ من المهجوّين الغاية ، وقد رأينا أن أكثرهم نال ما أراد ووقع حيث تمنى ، فكان التوفيقُ حليفَ العباقرة من الهجّائين رفعهم إلى مصاف الشعراء العالميين ، وهذا الذى سعينا إليه جاهدين فى عرض ما كان منهم من شرّ كثير لم نصنعه بأقلامنا ، وناقل الكفر ليس بكافر ، فيما يقولون .

الفصل الثالث

الهجاء الأخلاقى

المعايب والمثالب

« إذا هجوت فأضحك »

جرير

الضعة والهوان — الغدر — ذل الجار — امتهان النساء بالحرفة — البخل والشح — الثقيل — الأحمق

وصف المؤرخون جزيرة العرب فقالوا إنها قاسية عنيفة ، وإن العربى عاش فيها على نضال فى سبيل العيش وكفاح فى سبيل اللقمة ، فعلى ساكنيها أن يسعوا وأن يشقوا ، لذلك كانت المنعة والقوة والبأس من أسباب الظفر فى الحياة. والقوى فيها هو الذى يحيا والضعيف يلجأ إلى القوى ويلوذ بأكنافه . وهكذا جعلوا الشجاعة والبطولة وركوب المخاوف والأخطار وتحمل المكاره واقتحام الخطوب من مزايا الرجال ، ومحامد الصفات . فلم يكن فيما يبدو لهذه الجزيرة من مثل أعلى فى نظر القوم إلا القوة ، لأنها وحدها رمز النضال وشارة القتال وكفاية المحارب . ولا يلام قوىّ إذا اغتصب أو سلب ، وإنما يلام الضعيف الحقير الذليل المظلوم . وليس فى هذه البلاد قبل الإسلام قانون يعاقب القوىّ على ظلمه ؛ ولا يفلّ الحديد إلا الحديد . ولما نشأت الدولة الإسلامية ظلّ العربى يلجأ إلى القوة والعصبية والقبيلة يعتمد على أقرانه وأبناء عشيرته وأسرته . فقد كان يرى فى الاستغاثة بالسلطان ضعفاً ومذلة . لذلك احتقر العربى أصحاب الصناعة والزراعة والتجارة . ونظروا إليهم كما ينظرون إلى وادع خائف مستقر لا يسعى إلى مغامرة ولا يخوض فى زحام . وبهذا مدحوا الشجاع البطل وذموا الجبان الخائف . واستحبوا لأنفسهم أن يموتوا على خيولهم محاربين من أن يموتوا على فراشهم حتف أنفهم راغمين .

وكان لهذه الحياة القاسية أن تتطلب محاربين أقوياء وأن تسعى إلى كثرة الرجال ووفرة النسل ، فهم عدة الحرب وحماة الحمى ، والذابون عن الحياض ، والحياة عندهم قوة وبأس شديد . وكان البطل الفارس يخلص من مغامرة ليدخل فى أخرى ، على جسد نحيل وقوام سمهرىّ ، شديد النشاط . لذلك ذموا من كان على عكسه سميناً ضخماً قصيراً ، يركن إلى الراحة ، ويستنيم إلى القرار والترف والخمول . على أنهم نظروا إلى المرأة نظرة أخرى فرأوا لها الترف والنعيم ، لأن وراءها رجلا يدفع عنها العمل والسعى والصنعة والحرفة ، فلا تقوم إلا لحديث أو زيارة ، من جارة إلى جارة ، تتعطر وتتزين ، وتفوح منها رائحة الجنان ، فهى نؤوم الضحى مترفة العيش — كما بسطنا فى كتاب الغزل —. واستحبّوا للمرأة أن تُغتَصب لتنجب ، وللزوج أن يَغصِب لينجب لأنه يفضل العنفَ والقوة فى كلّ شىء ، فيخطف المرأة من زوجها ويغلبه عليها ، على كثرة الحراس حولها .

ونتج من هذا كله مثل عليا نظروا إليها نظرة الاحترام هى القوة ، والكرم ، والشجاعة ، والبطولة . كما نظروا إلى ما يخلّ بها نظرة الاحتقار والهجاء والازدراء ، فكانوا يهجون العربى بالضعف ، والخور ، والكذب ، واحتراف المهن الحقيرة .

وتناولوه بالهجاء كذلك إذا كانت النساء عنده تعمل وتسعى فى البيت والمرعى ، وأثاروا هذه المثالبَ والمعايب ، وتحدثوا فيها ، وقال شاعرهم حولها ، فجسم الخطب ورسم العيبَ فى شكل يُزرى بصاحبه ويحط منه . ولم يقصد الشاعر بإبراز هذه المعايب نصحاً أو درساً ، وإنما روّى سهمه وأشبع سيفه وشفى قلبه ، انتقاماً وتشفياً معتمداً على الغضب والحنق ، لا على العقل والحلم والأناة . لذلك كانت أبيات الهجاء مقدودة من ألفاظ شديدة الوقع قوية الأسر ، نارية محتدمة ، لا تشبه فى شىء ما كان عند الغربيين من هجاء .

وقد وُلد الهجاء فيما رأينا عند العربىّ منذ نشأته ، فى الجاهلية ، وسار فى الإسلام كذلك ، ومشى على العصور ، فتأثر بالبيئة والإقليم والوسط والثقافة والوعى والمفاهيم . وسنعرضُ لألوانه على التسلسل ، فى مختلف المعايب الأخلاقية كما كانوا ينظرون إليها من خلال مبادئهم .

نظر طرفة بن العبد إلى خصمه ، فصوّر أخلاقه من وشاية ونميمة فقال فيه يتشفى وينتقم :

وَفرّقَ عنْ بيتيك سَعدُ بنُ مالك　　وَعمراً وَعوْفاً ما تشى وَتقولُ
وأنتَ على الأدنى شمَال عَرِية[1]　　شآمية تزوى الوجُوهَ بليـــلُ

فقصّ علينا كيف فرّق بين بيتى أهله وذويه ما كان يأتيه من أقوال يتقولها ونمائم يسعى بها ، ويمشى بين العشيرتين حتى فرّق الجمع وأوقع الشرّ ، وهو على أقاربه كالريح الشمالية الباردة تحرق الوجوه إذا هبطت فى الشتاء ، ويصحبها بلل من المطر ، ونَدى يقبضُ الجلد ويجفف المفصل والوجه .

وقال مُساور بن هند فى هجاء بنى أسد يصفهم بالذلّ والهوان :

زَعمتم أن إخوتكم قريشٌ　　لهم إلفٌ وليس لكم إلافُ
أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً　　وقدْ جاعتْ بنو أسد وَخافوا

يُخاطب بنى أسد ، ويكذب دعواهم فى انتمائهم إلى قريش ، وتنسّبهم بالقربى منهم ، والواقع أن لقريش إيلافاً فى رحلتى الشتاء والصيف وليس لبنى أسد مثلهم ، فأولئك آمنهم الله من الجوع والخوف ، وهؤلاء جائعون خائفون .

وفى كتاب « الحماسة » شعر يشبه هذا الذى أوردنا ، ينددّ بالجبن والقعود عن القتال ، والسكوت على الضيم ، ويصف المهجوّين بالنعام تتسابق فى الهرب ، وتطلب النجاء لنفسها ، مفلولة مغلوبة ، ذليلة حين تُجردُ السيوف عليهم من أغمادها ، فيقول شاعرهم فى خصْمه :

غدرتَ بأمر كنتَ أنتَ اجتذبتنا　　إليه وبئس الشيمة الغدرُ بالعهد
وقد يَترُك الغدرَ الفتى وطعامهُ　　إذا هو أمسى جُله منْ دَم الفصْد

فهو يُشير إلى أمر خطير يحتقره العرب وهو الغدر ونكث العهد ، والفتى يؤثر الإقامة على الوفاء مع شدة الفاقة ، ويطلب اكتسابَ المحمدة وإن كان مسكيناً ذا مَتربة ، حتى إذا أمسى كان جل طعامه فصيدَ الدم . والهجّاءون يندّدون بالغدر أبداً ، وسوء الجوار ، فيقول شاعرهم :

---

(١) العرية : الباردة ، شآمية : من ناحية الشام .

لا يَرتجي الجار خيراً فى بيوتهم ولا مَحَالةَ منْ شتْم وألقاب

فجارُهم متبذلٌ فيهم ، يائسٌ من خيرهم ما دام فى حيهم ، يُلقى بالاستخفاف ويُرمى بالألقاب ويُشتم . وسار زهير بنُ أبى سُلمى على هذا ، فذمّ من لا يحفظ الجار :

وجار سارَ معتمداً إليكم أجاءته المخافةُ والرجاءُ

كما سار الحطيئة فى السبيل نفسها فتناول من لا يجير ولا يكرم :

جارٌ لقومْ أطالوا هونَ منزله وغادرُوه مقيما بينَ أرماس[1]
ملوا قِراه وهرّتْه كلابُهم وجرّحوه بأنياب وأضراس[2]
دَع المكارم لا ترْحل لبغيتها واقعد فإنكَ أنتَ الطاعم الكاسى

وهذا كلام لا تدخله بذاءة لفظ أو تقعّر تعبير ، فليس فيه إفحاش ولا إقذاع ، ولكنه فنّ جميل فى إذلال المهجو ورميه بالانصراف عن الكرم والنبل ، فى صور حسية عربية جاهلية ، تجد فى نسيان الجار مذلةً وفى الوقوف عن الضيافة معرّة . فالكلابُ تدفع الناس عن البيت والرجل يقيم مكسوّاً مطعماً ليس له همٌّ من دنياه إلا أن يأكل وأن يلبس ، وفى هذا هجاء عظيم بليغ . والشاعر يهجو أمه لأنها لا تحفظ السرّ كما هجاها الجاهلى قبل قليل ، فقال :

إتنحّىْ فاجلسى منى بعيداً أراحَ اللهُ منك العالمينا
أغربالا إذا استودعت سرًّا وكانوناً على المتحدثينا[3]
حياتُك ما علمتُ حياةُ سوء وموتُك قد يسر الصالحينا

فهى ثرثارة تُفشى السر ثقليةٌ على الناس ، فحياتها شرٌّ ، وموتها خيرٌ وأبقى ، وهذا دليل على ما كان يحبه العربُ فى النساء ،وما كانوا يكرهونه منهن . وهو صورةٌ للهجاء بارعةٌ ما نجد ألطف منها لفظاً وأوقع منها أثراً فيما قرأنا لهذا

---

(١) الهون : المذلة ، الأرماس : القبور .

(٢) هرته : نبحته .

(٣) الغربال : النمام ، الكانون : الثقيل من الناس .

العصر ، لأنه كالهجاء الجاهلى ليس فيه بذاء وفحش ، وقد كان أشد الهجاء عندهم فيما نعلم أعفه وأصدقه ، وما خرج عن ذلك فهو قذف وإفحاش كما كان فى هجو الأعراض ، مما تراه فى غير هذا المكان .

وقد عكف الشعراءُ الأمويون على أخلاق الجاهلية فى أكثر هجائهم ، فرموا مَنْ كان يحترفُ الصناعةَ والمهن المحتقرة ، فكان جريرٌ يهجو الفرزدقَ زاعماً أن أجداده كانوا يعيشون بالحدادة ويقضون أيامهم قربَ النار والحديد والشرر والدخان والكير ، فكانوا كالرّقيق والعبيد ، ولذلك قال جرير :

ما بالُ أمك إذ تَسربَل درعها ... ومن الحديد مفاضة سربالى
حَممتَ وجهك فوق كيرك قائماً ... وسَقيتَ أمك فضلةالجرْيال[1]
فانفخْ بكيرك يا فرزدقُ وانتظرْ ... فى كرنباء هديةَ القفّال[2]

فرسم أم الفرزدق فى ثياب الصناع تعمل مع ابنها على مقربة من هذا الجحيم خلال الحرّ ، وابنها يقوم على العمل ، يسقيها فضلةَ الخمر جزاء ما تقوم به ، فهو نافخُ الكير ينتظر ثوابه على أيدى الزبائن . وليس الفرزدق أقل منه تعلقاً بهذه الصور فهو يهجوه بأن قوم جرير فقراء كذلك يصطنعون الخمرَ فى تنقلهم ، فيقول :

يا ابن المراغة كيفَ تَطلب دارماً ... وأبوك بَينَ حمارة وحمار
قبح الإلهُ بنى كليب إنهم ... لا يغدرون ولا يفون لجار
يَستيقظون إلى نهاق حمارهم ... وتنامُ أعينهم عن الأوتار[3]

فيعجب كيف يريدُ جرير أن ينافس قوم « دارم » وهو يعيش بين حمارة وحمار ، إنهم قوم لا يفون لجار ، ولا يستيقظون لثأر ، ولا يهبون إلى مكرمة ، وإنما يوقظهم نُهاقُ الحمار ، وصوتُ الأعيار . وهكذا وصمت النساء فى معركة المنافرة والمناقضة ووقعن فى الألسن الخبيثة كالجاهلية سواء بسواء .

---

(١) الجريال : الخمر — انظر القصيدة فى ديوان جرير ص ٤٧٠ — ٤٧١ .
(٢) كرنب الرجل : آكل التمر .
(٣) الأوتار : جمع وتر ، وهو الثأر .

وحين اشتد الهجاءُ فى العصر الأموى اختلط بالحماسة والفخر ، وتناول القبيلة والعشيرة كلها ،ودخل فى الدين فهجا بالشرك والكفر ، ولكنه رجع إلى البخل ، والجبن ، وحماية الجار فلام الذين خرجوا على المثل العربية العليا المعروفة فتعلقوا بالصناعة والمهنة ، أو كانوا على ذلّ ومهانة فى العيش المأجور ، فقال الفرزدق فى جرير :

كمْ خالةٍ لكَ يا جريرُ وعمةٍ   فدعاء قد حلبتْ على عشارى[1]
شغّارة تقذُ الفصيلَ برجلها   فطّارةٍ لقوادم الأبكـــار[2]
كانتْ تراوح عاتقيها عُلبةً   خلف اللقاح سريعة الإدرار

فجعله من أسرة ذليلة أكثر أهلها يقومون بحرف تافهة ، بل إن النساء فيها رعين وحلبن واشتغلن وذلك للرجال فلا يجب أن تمسه النساء ، ويقول فى غيرها :

كانتْ تطيّبُ بالفساء ولم يلج   بيتاً لها بذكيّة عطـــارُ

فرأى أنّ الفساءَ لازمها عمرها كله ، ولم يدخل عليها عطر أو طيب ، والنساء الناعمات يفخرن بما حُرمتْ منه هذه المرأة ، فهىّ مهينة فقيرةٌ تعيش بين الحيوانات ورَوْث البقر . والفرزدق يكثر من هذا المعنى فيلصق المسكَ بالرجال ويلحق ريح الخروء والفساء بالمهجوة ؛ وكم ندّد بمن يخيب الرجاء ، فقال :

فلا يرْجُ عبد الله راجٍ فإنما   أمانى عبد الله أضغاث أحلام

وقد أخذ المعنى من القرآن ، وهجا الرجل بأنه يعد ولا يفى ومَنْ يرجو عنده أمراً فقد أضاع عمره فى انتظار وأمل . وفى البخل يتناول الأخطل مهجويه فيقول :

قومٌ إذا استنبحَ الأضياف كلبُهم   قالوا لأمهم بُولى على النـــار
فتمسكُ البولَ ضنًّا أن تجودَ به   ومَا تبولُ لهم إلا بمقـــدار

---

(١) الفدع : خروج مفصل الإبهام مع ميل فى القدم قليل ، حلبت : أى أنها راعية .

(٢) الشغارة : التى تشغر الفصيل برجلها إذا دنا من أمه ليرضع ، والفطارة من الفطر وهو الحلب بالسبابة والوسطى ، والقوادم : جمع القادمين وهما خلفا الضرع

فهو يجمع عليهم نبحَ الكلاب للأضياف ونظرَهم إلى الأم تبول أمامهم ، وبخلها حتى بالبول ، وذلك منتهى الإقذاع فى رمى الناس بإطفاء النار والبعد عن القرى . وقال أحد أبناء المهلب يهجو قوماً لبخلهم :

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم ... واستوثقوا من رتاج الباب والدار
لايقبسُ الجارُ منهم فضل نارهم ... ولا تكف يدٌ عن حُرْمة الجار

وهذه صورة نادرة للبخل وردّ الأضياف وإقفال الباب دونهم ، فلا يفيد جار من نارهم ، ولا يدفعون عن مجاوريهم جوعاً أو عاراً بل إنهم يسطون على حرمة من حولهم . وهجا شاعرٌ قوماً فى تأخرهم عن تلبية النداء والاندفاع إلى الحرب فقال :

إذا بكريةٌ ولدت غلاماً ... فيا لؤماً لذلك من غُلام
يُزاحمُ فى المآدب كلّ عبد ... وليس لدى الحِفاظ بذى زحام

فهم كثرةٌ عند المآدب والولائم ، قلةٌ عند الاستنفار فى حماية الحياض والأعراض ، يتخلفون عند الشجاعة ويتقدّمون عند المآكل ، وكم يهجو الشعراء خصومَهم بالجبن والهرب من المعركة فيقول أحدهم :

إنْ أنتمُ لم تطلبوا بأخيكمُ ... فذرُوا السلاحَ ووحّشوا بالأبرق(١)
وخذوا المكاحلَ والمجاسدَ والبسوا ... نقبَ النساء فبئس رَهطُ المرهق(٢)

يريد أنكم إن لم تثأروا لصاحبكم فتزيوا بزىّ النساء ، لأنكم أقرب إلى صفاتهن فى القعود عن الثأر والشجاعة ونجدة الضعيف .

وظلت هذه الأخلاق مرعية على العصور ، فهجا الشعراء كلّ بخيل ورسموا له صورة تختلف قوة وضعفاً وقرباً من الفن وبعداً عنه ، فقد قال شاعرهم فى ذم البخل :

سمعتُ المديح أناساً دونَ مالهمُ ... ردٌّ قبيحٌ وقولٌ ليس بالحسن
فلم أفُزْ منهم إلا بما حملتْ ... رجلُ البعوضة من فخارة اللبن

(١) الأبرق : المكان فيه حجارة سود وبيض .
(٢) المجاسد : جمع المجسد ، وهو الثوب المشبع صبغاً ؛ المرهق : المضيق عليه .

فتصورْ هذا المالَ الذى عاد به الشاعر من ممدوحه ومقداره ما تحمل رجل البعوضة من اللبن ، وهذا جميل حسن يروق للسمع ويحلو للخيال . وقال دعبل الخزاعى يذمّ بخيلا :

أتقفل مطبخاً لا شيء فيـــه ... من الدنيا تخاف عليه أكلُ
فهذا المطبخُ استوثقتَ منهُ ... فما بالُ الكنيف عليه قفل[1]
ولكن قد بخلتَ بكلّ شيء ... فحتى السلح منك عليك بخل

فهو قد أقفل مطبخاً فلا يطعم ضيفاً ، وقد سدّ الكنيف لشدّة بخله فخاف حتى السلح كما خافت المرأةُ حتى البول . وذلك منتهى الهجاء ودقة التصوير وبراعة السخرية ، ثم قال فى مكان آخر :

وإنّ له لطباخـــاً وخبزاً ... وأنواع الفواكه والشراب
ولكن دونَهُ حبسٌ وضربٌ ... وأبوابٌ تطابقُ دونَ باب
يذُودونَ الذبابَ يمرّ عنهُ ... كأمثال الملائكة الغضاب

فكيف ترى هذا الرجلَ حين يكرم ضيوفه بالحبس والضرب وإغلاق الأبواب ، يطرد حتى الذباب ، على أن له طباخاً وفواكه وشراباً فما ينقصه شيء ، لكنها خلة البخل قد سدّت عليه سبيلَ الضيوف . وقد كره الشعراء وقوفَ الحجاب على الأبواب وكثرتهم عند الأغنياء يمنعون الطارق ويدفعون القادم ؛ وقالوا فى ذلك كثيراً حتى أسرفوا، ولا سبيل إلى رواية كلّ ما قالوا؛ فى كتب الأدب أمثلة منه . وكرهوا الجهلَ فذموا صاحبه ، واستبشعوا اللؤم فتناولوا اللئام وقالوا فى ذلك كثيراً ، فيه النثر والشعر .

وكان أبو العتاهية يذمّ الحرصَ ، ويرى أنه يضرّ بصاحبه ويذل أهله ، ويجد أن الشهوات قاتلة ، ورب ساعة شهوة أورثت صاحبها حزناً طويلا . ولبشار صورة فى أبى عمران يصف فيها غلاظته وثقله فيقول فيه :

ربما يثقل الجليس وإن كا ... نَ خفيفاً فى كفة الميزان
كيفَ لا تحملُ الأمانةَ أرضٌ ... حملتْ فوقها أبا عمران

---

(١) الكنيف : المرحاض .

فهو يرسم منه طباعه رسماً بارعاً فيه سخرية لاذعة ، يضحك منها الناس ، وهو يصف ثقيلا آخر فيهجوه بقوله :

وكيفَ يخف لى بصرى وسمعى ... وحولى عسكران من الثقال
قعوداً حول دسكرتى وعندى[1] ... كأن لهم على فضولَ مـال
إذا ما شئتُ صبحنى « هلالٌ » ... وأىّ الناس أثقلُ من « هلال »[2]

وكم يحلو لنا أن نردد هذه الأبيات فى ثقيل يحلّ بنا فلا ينصرف ، ويثقل علينا كأنه رضوى يدفع السرور ويحجب الفرح بظله الظليل الكدر . وأبو نواس يهجو البخل كذلك فى ألفاظ لطيفة خفيفة :

ألومُ « عباساً » على بُخله ... كأنّ عباساً من الناس
وإنما العباس فى قومه ... كالثـوم بينْ الورْد والآس

فهو يتناول الرجلَ كما تناوله القدماء ، فيكرّ عليه ويجعله كالثوم بين الورد والآس ، فهو كريه الرائحة لشدة ضنه وإمساكه فى الإنفاق ، ويقول كذلك فى الفضل الرقاشى :

أماتَ اللهُ من جوع رُقاشاً ... فلولا الجوعُ ما ماتتْ رقاشُ
ولو أشممتَ موتاهم رغيفاً ... وقد سكنوا القبورَ إذاً لعاشوا

وهذه الصورة مضحكة تهين الرجل وتجعله لشدة بخله يموت من الجوع ، فلو شمّ الرغيف بعد موته لعاش . ومثله مسلم بن الوليد هجا البخلاء ، فقال فى سعيد بن سلم :

إذا سيلَ عرفاً كسا وجهه ... ثياباً من اللؤم حمراً وسودا
يُغيرُ على المال فعلَ الجوا ... د وتأبى خلائقهُ أن يجودا

فيرسم وجهه حين يسأل عرفاً وقد صُبغ بالحمرة والسواد ، ويرسمه حين يُغير على المال كأنه الجواد ، ولكنه فى السعى إليه وجمعه كأنه يفتش عنه فى

---

(١) الدسكرة : القرية والصومعة وبيوت الأعاجم يكون فيها الشراب ، وقيل بناء كالقصر حوله بيوت تجتمع فيها الشطار .

(٢) وفى كتاب الثقلاء أشعار كثيرة فى هذا الباب يحسن الرجوع إليها .

أطراف الأرض ، ويقف لاصطياده كما يقف الصياد عند شاطئ فقير فى السمك .

وطبعى أن يصور الشعراء العباسيون بخلاءهم تصويراً مبدعاً فهم سألوا وحُرموا ، فأصابوا الذين حرموهم وتناولوهم بأفظع الصفات ؛ ولسنا هنا لندافع عن الذين حبسوا العطايا وسدوا الأبوابَ ، ولكننا نجدُ الهجاء فى غالبيته لهذا العصر مصطنعاً مُغرضاً متكلفاً ، لا يصف حقيقة الناس ، ولا يجعل الشعر فى مستوى الصدق كما كان فى بعض الشعر الجاهلى والإسلامى . ونحن إنما نعرض للهجاء على أنه فن سواء أصدق قائله أم كذب ، وما نسعى إلى معرفة الحقيقة التاريخية فيه ، ولكننا نتبين الأسلوب الذى طرقه الشاعر الهجاء ليس غير . ونريد أن نقول إن الشعراء فى بعض العصور العباسية لم يغضبوا للبخلاء على أنهم بخلاء ، ولكنهم غضبوا لأصحاب الجاه والثراء على أنهم منعوا أموالهم عن الشعراء المادحين القاصدين ، ولعلّ سبب هذا الشعر حرمان وخيبة ، وخاصة عند هؤلاء الذين يرجون نوالا ويعودون بخفّىْ حُنين .

فقد قال أبو تمام مصرّحاً بطلبه ، وهجا حين خاب فى مسعاه :

أعملتُ فيكَ قصائدى ووسائلى ... فحرمتنى فلبئس أجرُ العامل
ما خلفتْ حواءُ أحمقَ لحيةً ... من سائل يرجوُ الغنى من سائل

فتصوّرْ هذا الشاعرَ يطلبُ غنى ، فإذا رفض العطاء جعله مثله سائلا فقيراً ! ولو كان كذلك لما أنشد فيه قصائده وبذل فيه وسائله ، ولكنه بكى ضياع شعره ، وخسارة القول فيه بعد الإلحاح فى الطلب ، وقال فى موضع آخر يُبين عن هذا الغلّ فى صدره لمن بخس شعره حقه ولم ينقده ثمنه :

يا عذارى الكلام صرْتن من بعْ ... د سبايا تُبعن فى الأعراب
عبقات بالسمع تبدى وجوهاً ... كوجوه الكواعب الأتراب

فهو يأسفُ لشعره يُباع فى الأعراب الذين لا يفقهون مكانه ولا يعرفون له وزناً فلا يقدرونه حقّ قدره . وهو كلام جميل مبتكر أشبه ما يكون بالعذارى والكواعب الأتراب ، ويلحّ الشاعر على هذا المعنى فى هجاء صالح الهاشمى :

وَملك في كبره ونُبلـه ... وسُوقةٌ في قَومه وفعله
بَذلتُ مَدحي فيه باغي بذله ... فجذّ حبلَ أملي من أصلْه
من بعـد ما استعبدني بمطله ... ثم أتى معتـذراً بجهلـه
يلحظني في جده وهزْله ... لحظَ الأسير حلقات كبله
يعجبُ من تَعجبي من بُخله ... حتى كأني جئته بعزلـه
يا واحداً مقتدراً بَعدله ... ألبسته الغنى فـلا تملّـه
ما أضيعَ الغمد بغير نصْله ... والشعر مالم يَكُ عند أهله

بذل الشاعر في ممدوحه ما استطاع من جهد وشعر طَيب فلما خابَ رماه بالهجاء . وأسف لأنه استعبده بالمطل ثم اعتذر بالجهل ، ولكن الشعر يضيعُ عند غير أهله كما يضيع الغمد بغير نصله . وهكذا نبرهن أن مبعث هذا الهجاء ردّ كان غير جميل . وبُخلٌ في العطاء لم يقع من الشاعر موقع القبول ، فثار وهاج وأرسل فيه هذه الصفات الدميمة ، فجعله سُوقة وجاهلا وأسيراً ، وكذلك يقع في ألسنة الهجاء من لم يدفع بالتي هي أحسن ، ومن لم يُكرم الشعراء ويُغدق على الأدباء . وهذا الذي قلنا ينطبق على أكثر الشعر الهجائي قاله هؤلاء المداحون حين حُرموا فألصقوا بالمهجوين ما شاء خيالهم أن يبتكر من ذمّ وقصاص وتشفّ ، ونحنُ على معرفتنا بكذب الهجائين نريد أن نتبين — كما قلنا — طرائقهم في الهجاء وأساليبهم في التصوير ومعانيهم في هذا الباب ، لننتهي إلى أنهم شبهوا هؤلاء البخلاء بصورّ مقذعة فيها هذا الذي أوردنا ، وفيها أن هؤلاء تيوس وأنهم عبيد ، وأنهم في أخلاق البغال ، فيقول أبو تمام :

لَهمْ حُللٌ حَسُنَّ فهن بيضٌ ... وأخلاقٌ سمجن فهن سُودُ
وأخلاقُ البغال فكلّ يوم ... يعنّ لبعضهم خلق جديدُ
وأكثرْ ما لسائلهم لديهم ... إذا ما جاء قولهمُ : تَعودُ
أناسٌ لو تأملهمْ « لبيدٌ » ... بكى الخلفَ الذي يشكو لبيد[1]

قال ذلك بعد أن خاب رجاؤه في أهل نصيبين ، ورُد طلبه عندهم فآب بالخيبة وعاد بالهجاء يرسم بُخل القوم ومطلهم للمواعيد . ولسنا نُحصي هذا

(١) يشير إلى قول لبيد :

« ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب »

اللون عند أبي تمام فهو كثير ، ومثله عند البحترى . ولكن ابن الرومى يهجو البخلَ فى صورة فنية جميلة لا نجدُ محيداً عن روايتها قالها فى عيسى :

يُقتِّرُ عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالـــد
فلـــو يستطيعُ لتقتيره تَنفس من منخر واحـــد

فهو يرسم شحه وإمساكه عن الناس فى تشبيه رائع ، حيث جعله يقتر بالتنفس ، والتنفس لا يكلف شططاً ولا يُؤدى إلى فقر ، ولكنه تعود البخلَ فصارت أعضاؤه شحيحة كلها متناسبة فى ذلك ، فأنفه يتنفس من منخر واحد لا يجود بالهواء حين يرسله ، وهو بذلك يشبه المرأة التى ضنت بالبول فلا ترسله إلا بمقدار . ويرى ابن الرومى فى الهجاء كما رأى غيرُه قبله أن بعضَ الناس يَسعى إلى أن يُهجى ليسير ذكره فى الدنيا فيقول :

يَسومُ هجائى كى يُنوِّه باسمه وفى السب ذكرٌ للئيم وَمفخرُ
أخالدُ لم أنكر لك النكرَ والخنا بل العرْف من أفعال مثلك منكرُ
حَداك إلىَّ الحين حتى استثرتنى عليكَ وإنى فى عرينى لمخدرُ
فدونك ما حاولتهُ فبلغتهُ وردتَ ولكن لا إخالكَ تَصدُرُ
فقد كنت نسياً لا تحس ولا ترى زماناً طويلا فاصبر الآن تذكرُ
ستروى رواة الشعر فيك قصائداً يُغنى بها مانودى : الله أكبرُ
سُداها مخازيك التى قد علمتها ولُحمتها منى الكلام المحبَّرُ

فهو يجدُ حتى فى السب ذكراً للئيم ، وشهرة للمنسىّ . وللشاعر فيه جولات سُداها المخازى ولحمتها الكلام الموشى الجميل ، وهذا الشاعر كزميله أبى تمام يطلبُ الرفدَ فحين يُرَد طلبه يهجو فيعترف بقوله :

مَدحتُ أبا العباس أطلبُ رفدُه فَخيبنى من رفده وَهجا شعرى

فالهجاءُ كان تهديداً ووعيداً يقول فيه هؤلاء الشعراء حين يَخيبون فيسعون إلى صور تهجم على الناس فتصمهم بالبخل والشحّ والضنة ، وقد تجعلهم موضع السوءات والمعايب كلها ، كما قال ابن الرومى فى خالد القحطبىّ :

يا مُستقر العار والنقص أغنتْ مخازيك عن الفحص

أنتَ الذى ليستْ لسوآته ولا لنعمى الله من مُحْص
معائبُ الناس وسوْآتهمْ قدجمعت لى منك فى شخص

فجمع السوآت كلها والمعايبَ فى شخصه ما يكاد يُفلتُ منه عيب أو خزى إلا كان فيه ، وهذا هجاء قاس شديد ، ولكننا نجد هجاءه فى إسماعيل ابن بلبل أبرع منه حين يقول :

عجبَ الناسُ من أبى الصقر إذولـّ ى بعد الإجــارة الديوانا
ولعمرى ما ذاك أعجبُ من أن كان علجاً فصار منْ شيبانا
إن للجدّ كيمياء إذا مـــا مسّ كلباً أحالهُ إنســـاناً
يفعلُ الله ما يشاء كما شـــا ءَ متى شاء كائناً ما كاناً

فهو يُحيله من مقام إلى مقام ومن صورة إلى صورة حتى ليعيد أصله إلى الكلب فيجعله إنساناً بعد ذلك ، وكذلك يفعل اللهُ معجزاته ؛ ونرى فى ترديد الكلمات هنا إتماماً لبراعته فى هذا الهجاء . ويشاء ابن الرومى أن يتم المعايبَ فى هذا الباب فيهجو ثقيلا بقوله :

وثقيـــل كأنهُ ثقلُ دَين تتقـــذاهُ طالعاً كلُّ عينِ
حمـَّل الله أرْضَه ثقلَيْها وبراه عــلاوةَ الثقَلَين

فهل تجدُ أشد أثراً من هذا الثقيل حين يزيد على ثقل الأرض كلها ، تتقذى لمنظره العين ويجده الناس منفراً كالديون . ويضيف المتنبى إلى المعايب المذكورة خفة الحلم وقلة العقل فيقول فى كافور :

لقدْ كنتُ أحسب قبل الخصىّ أن الرءوس مقرُّ النهى
فلمـــا نظرتُ إلى عقلـــه رأيتُ النهى كلها فى الخصَى

فهو يجعلُ عقله فى غير مكانه ويرسم له صورة معروفة ولكنها فنية فى السبك والتركيب واللفظ ، وحين يتناول البخلَ يتخذ سبيلا جديدة فى الوصف فيقول لمليك مصر :

أمسيتُ أروح مُثْرٍ خازناً ويداً أنا الغنى وأموالى المواعيدُ
إنى نزلت بكذابين ضيفهم عن القرَى وعن الترحال محدود

جُود الرّجال من الأيدى وجودهم ‏ ‏ من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ذلك أنه انتظر النوال فما نال ، وعاد غنياً بالآمال فقيراً بالأموال ، فالجودُ لم يتعد حدودَ اللسان ولم يبلغ إلى الأيدى ، ومردّ ذلك إلى حسب الأسود المخصىّ وضآلة نسبه وقلة سؤدده وضياع أصله ، فقد كان قدره لا يجوز الفلسين فى يد النخاس وما فى ذلك عيب لأن الفحول عاجزة حقًّا عن الجميل فكيف إذا كان المقصود هذه الخصية السود . وهو فى أغراضه يشبه القدماء ، فيلوم من لا يحفظ الجار ولا يصونُ عرضَه ، ويأخذ ذلك على سيف الدولة فيقول فيه :

رأيتكم لا يصُونُ العرضَ جارُكمُ ‏ ‏ ولا يَدر على مَرْعاكم اللبنُ
وتغضَبون على مَنْ نالَ رفدكمُ ‏ ‏ حتى يعاقبه التنغيصُ والمِنَنُ

يقصدُ بذلك أنه أهين بحضرة الأمير فلم يحمه ، ونال من ماله فأبطل هذا العطاء مَنٌّ وأذى ، لذلك عاتبه وهجره . والشريف الرضى كمهيار الديلمى يهجوان مَن يمنع المالَ أو يعبس فى وجه السائلين أو لا يفى بوعد ، ومثلهما شعراء مدحوا فحرموا فهجوْا ، بل طلبوا أن يُرَد شِعرُهم إليهم لأن القصد قد خاب فيهم ، وهم حين ينالون من خصومهم يرددون فيهم أوصاف الكلب ، والتيس ، والخنزير ، والبغل ، والرائحة الكريهة ، والوجه البشع ، كما فعل القدماء قبلهم ، لم تغيّرهم الحضارة ، ولم تبدّل نظرَهم إلى الأسلوب والفن سكنى الحواضر من بغداد ودمشق والقاهرة فهم يذمون الغدرَ ، والكذبَ ، والبخلَ ، والجبن ، وذل الجار ، والثقل والغلاظة .

فلما كان العصر الحديث تغيرت الأخلاق وتبدلت العادات وقام فى دنيا العربية شعور جديد نحو العرض والجار والجبن والبخل ، وأصبح هناك من يَحمى الناس من تطاول الألسنة ، وسُنت القوانين لردع من يثلبُ الأعراض ويتناول الأعضاءَ بالذكر الداعر أو العبارة الفاحشة ؛ وانقلب التشفى والانتقام إلى مداعبة وملاسنة وتهكم وسخرية ، فقال حافظ إبراهيم فى بائع كتب صفيق الوجه :

أديمُ وجهكَ يا زنديقُ لو جُعلتْ ... منهُ الوقاية والتجليد للكتب
لم يَعلها عنكبوتٌ أينما تركتْ ... ولا تخافُ عليها سطوة اللهب

فجعل وجه الرجل أشدّ وقاية من جلد الكتب فلن يعلوها عنكبوت ، ولن يخاف عليها سطوة النار ، لأن وجهه لا يتأثر بشيء . وهكذا نرى أن المحارم لن تصاب ، ولن يذم الذى يمنع الناس من أكله وشربه وبيته ، لأن الحياة الاجتماعية الأوربية تغلغلت فى الشرق فصرفت الناس إلى أمور أخرى ، وخففت من الضيافة والسؤال وطرق الأبواب إلا ماكان فى بعض مناطق البلاد العربية حيث عاش بعض الأمراء والملوك على شيء مما كان يعيش عليه الأجداد ، ففتحوا بابهم للقاصدين ونالوا المديح ، ولم نسمع بهجاء من هذا النوع إلا ما ندر مما لا يخصّه ناقد بفصل أو يهتم له بنقد وجمع . ولكنه نشأ هجاء آخر سنقول فيه حين الكلام على الهجاء السياسى .

الفصل الرابع

الهجاء السياسي

الوراثة فى الخلافة — حق آل البيت — تظلم الشيعة — الشكوى من المستعمرين

كانت القبيلة مظهراً من مظاهر الوطن عند العربى ، يعيش فى حماها ويدفع عن حياضها ، ويذود عن حدودها . وكان هذا الوطن الصّغير يحملُ اسم القبيلة ، فى فخر وزهو ، ويتحالف مع قبيلة أخرى فيتكوّن من مجموعة القبائل جبهة أو وطن ، وكان المفهوم السياسى ضيقاً جداً يقف عند الانتصار أو الانكسار ، لأن الغارات كانت تتعاقب لضرورة العيش والحياة وضيق السبل والوسائط وقلة المال والغذاء والمرعى .

وكان رؤساء القبيلة هم زعماء السياسة فيها يعقدون المعاهدات ويعلنون الحروب ، ويجتمعون إذا ادلهمّ الخطبُ ، ويهبون جميعاً للقتال ، وكانَ الكاهنُ موضعَ الاستشارة والعون ينزعون إليه ليسألوه رأيه فى كثير مما يغمض عليهم . وكان الشاعر لسان هذه الدويلة وصحيفتها السيارة وقلمها البليغ تحتفل لولادة الشاعرية عنده ، وتفرح لقوّته ، وتفخر به كذلك ، لأنه درع من الدروع وحصن من الحصون يقاتل ويحارب بلسانه كما يحارب القوم بسيوفهم ورماحهم . وكانت قوة السياسة عند الشاعر خلال الأزمات تقع فى شدة حفظه للأنساب والأحساب ، لأنه يصرّف لسانه فيها فيتناول عدوّه ، وينزل به أشد النكبات كلما توسع فى هذه المعلومات وقلب قوله فيها . لذلك كان الشاعر لسان السياسة فى القبيلة ، ثم أصبح لسان السياسة فى الدولة . ولم يقع لنا من شعر الهجاء السياسى كبير أمر خلال الجاهلية فى بلاد الشام ، إلا ما تسرب إلينا من هجاء المتلمس فى المناذرة وما كان من الأعشى ضدّ الفرس وكسرى ، ولكنه حماسة وفخر قد مزجا بالهجاء .

ولا شك فى أن سائر هذا الهجاء القبلى قبل الإسلام كان يعتمد على التاريخ فيرجع إلى ماضى كل قبيلة ليعيرها بمخازيها ويكسوها العار الذى يريد . وأيام العرب كثيرة لا سبيل إلى إحصائها قامت من أجلها قصائد ومطولات ، تعتمد على الغضب والحقد والنفور والعداوة ، فتعدد الانتصارات وترسم الانكسارات وهذا كله أدخل فى الفخر والحماسة ، لأنه يذكر أيام النصر والظفر فيفتخر بها ، ويتندر ويتوعد ، ويذكر الهزائم فيعير بها . وأكثر هذا الشعر ثائر يصور مقاومة الطغيان ويستند إلى القوة ويصف البطش والدماء والقتلى ، ويأسف لوقوع ذلك ، ويرسم الموت المخيم على المعارك ، وقد يدعو إلى ترك ذلك ليلوذ القوم بالصلح والهدنة . وكان ذلك كله يدور حول المكارم العربية والأخلاق الرفيعة فيقول شاعرهم الحطيئة فى هجاء بنى عبدان :

لم نطأكم يوماً بظلم ولم نه ... تك حجاباً ولم نحل حراما
يا بنى منذر بن عبدان والبط ... نة يوماً قد تأفن الأحلاما[1]
لم أمرتم عبداً ليهجو قوماً ... ظالميهم من غير جرم كراما

وهذا الشاعر على بذاءة لسانه وقدرته فى الهجاء لم يصنع شيئاً فى قوله هنا ، وإنما كان معاتباً ومفاخراً ، يدعو إلى الحلم والعقل والتبصر والبعد عن الظلم .

فلما جاء الإسلام سعى سعياً حثيثاً لإبطال العصبية وإسكات هذه الحروب القبلية ، وإماتة هذه المفاخر إلا فى نصرة الدين الجديد ، فكان يدفع القوم إلى الإيمان بهذا المفهوم الجديد كوطنية جديدة ، تجعل من المؤمنين مواطنين ومن دينهم وطناً جديداً ، لعلهم يندفعون معاً ضد المشركين الذين يريدون أن يهدموا حدود هذا الوطن الدينى الناشئ ، فدعاهم إلى التضحية وإلى التناصر وإلى الاشتراكية الفعلية من وحدة فى العبادة ، ووحدة فى المعاملات ، ففرض الصيام والزكاة والصلاة والحج ، وأبطل ما عداها من أمور الجاهلية .

وهنا كان على المسلمين أن يقفوا فى صف وعلى المشركين أن يقفوا فى صف آخر ، فنشأ حزب وحزب — كما قلنا — واستولى الحزب الجديد على الأمر ،

---

(١) تأفن الأحلام : تذهب بها وتضعفها — رجل مأفون : ضعيف العقل .

ووحد النفوس والجيوش تحت علم واحد ، وكان إليه الأمر والسلطان فى المملكة الجديدة الإسلامية الصغيرة ، ونهض الحزب القديم يجمع شتاته ليستعيد ما كان له من نفوذ وما كانت له من امتيازات وعادات أبطلها سادة الحزب الجديد . وقامت المنافسة بين الحزبين فكان هجاء أشبه بالهجاء القبلى ولكنه انصبّ على المبادئ الإسلامية الجديدة ، وذكر جنة وذكر ناراً ، مما استمده من تعاليم القرآن الكريم .

ولم تسلم المملكة الجديدة من اضطراب وتنازع فى الأمصار ، فقد اتسعت الرقعةُ على قوم ناشئين فى الحكم ، ليست لهم ممارسة قديمة فى الإدارة ، ونشأت أحزاب فى هذه الأمصار لكل منها زعيم كبير لا يقل شأناً عن زميله فى قرابة الرسول أو صحبته وأصالة العشيرة وقوة النسب والمفاخر ، وهنا دبّ الهجاء ولكنه قام على العصبية الجاهلية كذلك ، كلّ ينتسب إلى أهله القدماء فى الجزيرة ويعدّد مفاخره العربية القديمة . وظهر هذا الهجاء السياسى فى شكل جديد ، ينزع بعض الشعراء إلى نصرة الخلافة ويهاجمون المنشقين ، وينزع آخرون ضد هذه الخلافة نفسها ويهاجمونها ، فكانت حكومة وكانت معارضة ، كما نقول اليوم ، وكان خارجون على الحكم ومناصرون لهذا الحكم .

وسعى رسول الله فى تكوين دولة جديدة على الإيمان سلاحها الجهاد والإخاء ، وتبعه أبو بكر وعمر فامتدت الدولة الإسلامية لعهدهما وسكنت لحزمهما ، وتعثرت فى عهد عثمان ، فعادت العصبية القبلية إلى الظهور ، وتحولت إلى عصبية إقليمية فأصبح فى الشام حزب معاوية وفى العراق حزب علىّ . ونشأت الشيعة ، وقامت فئة نزارية وفئة قحطانية ، وكان مع معاوية اليمنية ومع علىّ النزارية ، وظهر الخوارج ، ونهضت فتن وثورات ، ورافق ذلك كله شعر فى الفخر والهجاء ولكنه كان أقرب إلى الشعر البدوى فى الحماسة وفى تعداد المثالب والمعايب ، يضاف إليه الاعتزاز بالإقليم من شام أو عراق .

وعرف معاوية كيف يتألف القلوب ، ويبذل المال ، ويقرّب الشعراء ، وبايع لابنه يزيد بولاية العهد ، فسار على سياسة الوراثة فى الحكم ، وحرّض شعراءه على المعارضين ، ودعاهم بالإغراء إلى أن يكونوا شعراء رسميّين كصحافة

الحكومة فى الممالك المعاصرة فقالوا فى نُصرته وفى هجاء خصومه ، فاستفحل الهجاء السياسى وأصبح هؤلاء الشعراء يجتمعون فينشدون أهاجيهم . وكان فيها سباب وشتائم ، ويذكرون فيها ما ذكر الجاهليون ، ويعلقون بهذه الأسباب ويهجمون عليها ، حتى قيل لم يبق شاعر إلا وكان له فى الهجاء نصيب[1] . وقامت النقائض بين جرير والفرزدق ، وكان لكل منهما حلقة ومكان . وفى المربد أنشد جرير قوله المشهور :

فغضّ الطرفَ إنك من نمير ... فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فنكس الفرزدقُ رأسه . وفى هذا المكان تهاجى النابغة الجعدى وأوس ، وشارك الأخطل وكعب بن جعيل والعجاج[2] ، وكان منهم ما كان من زملائهم فى الجاهلية ، إلى تمثل بالآيات من القرآن الكريم واعتماد على ذكر الدين الجديد ونصرته أو خذلانه واستعارة مبادئه وتعاليمه .

وانصرف بعض الهجائين إلى تناول الحكام ونقدهم ، فرماهم بالبعد عن الدعوة وفى خروجهم على الشرع ، وقد هجا عتبة الأسدى « معاوية » واتهمه بالشره فى جمع المال وإفساد الناس فقال :

معاويَ إننا بشر فأسجح[3] ... فلسنا بالجبال ولا الحديد

أكلتمْ أرضَنا وجذَذْتموها ... فهلْ من قائم أو من حصيد

فهبنا أمة هلكتْ ضياعاً ... « يزيدُ » أميرها و « أبو يزيد »

أتطمعُ بالخلود إذا هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خُلود

ذَرُوا حولَ الخلافة واستقيموا ... وتأمين الأراذل والعبيد

وهذه صيحة ما كان يردّدها العرب فى المطالبة السياسية بالحقوق والتساوى ، والبعد عن تقريب الأراذل والعبيد ، ولكنها منبثقة من خلق العربى على كل حال

(١) انظر « الهجاء والهجاءون فى الجاهلية وصدر الإسلام » تأليف الدكتور محمد حسين ، وهو كتاب جميل فى هذا الباب يفى بحق الفن ويتوسع فيه .

(٢) الأغانى ٥/١٢ .

(٣) سجح : سهل ولان .

فهو لا يرتضى الذلّ والانقياد والضياع . وقد أثار بعضُ الشعراء قضايا الأمة وما آلت إليه من فتن وحال الحكام وما كانوا عليه من تهالك على الدنيا ، وتكالب على الجشع والمال وتمسك بالغرور والرياء والخداع ، واعتماد على الوعود والأقوال .

ولما ظهر الخوارج ، وقامت الشيعة ، ونشأت الأحزاب ، قال الشعراء فى حق الخلافة ووراثتها ، فكان الكميتُ أشدهم وطأة فى ذلك حين يذمّ سياسة بنى أمية فيقول فى آل البيت :

ساسةٌ لا كمَنْ يرْعىَ النـ ـاس سواء ورعيةَ الأنعام
لا كعبد المليك أو كوليـد أو سليمان بعدُ أو كهشام

فهو لا يرى للأمويين سياسة حسنة مع الرعية وإنما يرى أن من يحسنها هم الشيعة وآل البيت . ويقول فى ردّ حججهم :

وقالوا ورثناها أبانا وأمنا وما ورّثتهمْ ذاك أم ولا أب
يرَوْنَ لهم حقا على الناس واجباً سفاهاً وحقّ الهاشميين أوجبُ
ولكنْ مواريث ابن آمنة الذى به دانَ شرقى لكم ومغرّبُ[1]

فيردّ حججهم فى الوراثة ، وينفى حقهم فيها ، ويجد أنهم سلبوها سفاهاً وأن أحق الناس بها هم الهاشميون لأنهم من أصلاب ابن آمنة محمد — صلوات الله عليه — ، فبه دان لهم المشرقُ والمغربُ ، ثم يعددُ مفاخر آله فى بدر وغيرها من الغزوات والانتصارات . ولم يكن يستطيع أن يقول هذا فى جرأة وقوة من غير أن يتحمل وزر ذلك ، فقد كان الأمويون حرباً عليه ، وصف موقفهم منه بقوله :

ألم ترَنى منْ حبّ آل محمد أروحُ وأغدو خائفاً أترقبُ
كأنىَ جانٍ محدثٌ وكأنما بهم اتقى من خشية العار أجرب[2]

---

(١) مواريث : ج ميراث ، وابن آمنة : النبى (صلعم) .

(٢) جان : من الجناية ، وفى رواية : « من خشية العر أجرب » .

فهو خائف يروح ويغدو كأنه جان قد أحدث ذنباً أو بدعة ، فاجتنب وأقصىَ كأنه أجرب كما يتقى البعير ، وهو فى ذلك كله كالجاهليين بل إنه ليصارحنا بذلك فيقول : « وأفعال أهل الجاهلية نفعل » . ثم هو يناقشهم الحساب على ما يصنعون فيقول :

أأهلُ كتاب نحن فيه وأنتمُ على الحق نقضى بالكتاب ونعدل
فكيفَ ومن أنى وإذْ نحنُ خلفةٌ فريقان شتى تسمنون ونهزلُ

ويبين بذلك ظلم الأمويين لآل البيت ومعاملتهم معاملة شاذة فهم يسمنون والهاشميون يهزلون فقراً وجوعاً وحرماناً ، وهذا دليل على الشكوى من السياسة القائمة آنذاك . وأبو الأسود الدؤلى يظهر حبه كذلك لآل البيت وينعى حرمانهم من الخلافة ، وكثير عزّة دخل فى هذا وشارك فيه ، والحطيئة سخر من هذه الوراثة فقال :

أطعنا رَسولَ الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبى بكر
أيورثها بكراً إذا ماتَ بعده وتلك لعمر الله قاصمةُ الظهر

فقد رضى بالرسول ، ولكنه لم ير للوراثة سبباً . فلن تكون لأبى بكر بعده ولن تكون لعمر بعدهما . وزاد عبد الله بن همام السلوكى فى السخرية من هذه الوراثة فقال :

فإنْ تأتوا برملةَ أو بهند نبايعها أميرةَ مؤمنينا
إذا ما ماتَ كسرى قامَ كسرى نعد ثلاثة متناسقينا

فجعل حق الوراثة للنساء والرجال إذا قبل المسلمون هذا المبدأ وفى ذلك تقليد للأكاسرة وخروج عن الشرع ، وأعجمية فى الطريقة . وفعل الخوارج مثل هذا ودافعوا عن مبدئهم وهاجموا غيرهم . فقال شاعرهم :

كذبتم ليس ذاك كما زَعَمتمْ ولكن الخوارج مُؤمنونا
همُ الفئةُ القليلةُ غيرَ شكٍّ على الفئة الكثيرة ينصرُونا

فمزجوا الفخرَ بالذّم ، وخرجوا من ذلك مبرئين . ونزع الشيعة إلى المطالبة بحقهم وذموا الذين سلبوها منهم ولكنهم قالوا شعرهم فى قالب أقرب إلى الرثاء

والأسف والتظلم . وقام الزبيريون يصْنعون فى قصائدهم ما صنع هؤلاء سواء بسواء .

وهكذا رأينا أن هجاء الشيعة امتزج بالبكاء والحزن . وأن شعر الخوارج ضجّ بالحماسة والفداء . وهؤلاء وهؤلاء ينكرون كثرة القتلى والظلم ، ويدعون إلى الزهد والإخلاص للمبادئ ، ويحاربون الرياء والنفاق ، ويهاجمون الإنفاق بغير عدل والإغداق بغير رحمة والتظاهر فى تقليد الأكاسرة والأباطرة ، فقال يحيى بنُ نوفل الحميرى فى سعيد بن راشد وقد ارتقى إلى الإمارة :

فواعجبا حتّى سعيد بن راشـــد   له حاجبٌ فى الباب من ْدون حاجب

ويبدو أن الحنين إلى عيش الجاهلية والتقشف الذى كانوا فيه ، دفع الشعراء إلى استعادة ذلك الماضى اللامع ، والتقزز من هذا الحاضر المخزى حيث اندفع الخلفاء والولاة والقواد إلى ميادين جديدة فى البذخ والترف . والسكوت عن الرشوة والظلم ، والركون إلى العمال الجهلاء الجبناء ، والقعود عن معاقبة الجباة المتعسفين فيقول الفرزدق شاكياً إلى الوليد بن عبد الملك :

أميرَ المؤمنين وأنتَ تشفى   بعدْل يديك أدواء الصدُور
فكيفَ بعامل يسعى علينا   يكلفنا الدراهمَ فى البدور[١]
وأنى بالدراهم وهىَ منـــا   كرافع راحتيه إلى العبور[٢]
إذا سقنا الفرائضَ لم يردها   وصَدّ عن الشويهـــة والبعير
إذا وضَع السياطَ لنا نهـــارا   أخذنا بالربا سرق الحرير[٣]
فأدخلنـــا جهـــنم ما أخذنا   من الأرباء من دُون الظهور

فهو يجبى كل شهر حتّى لم يبق عند الناس مال ، ويصدّ عن القليل فى شويهة أو بعير ، ويجلد منْ لا يذعن لأمره فيأخذهم بالربا . ويدخلهم جهنم بسببه ، ولكنهم أطاعوا خوفاً على ظهورهم من السياط . ويقول الأخطل فى هجاء تميم العامرى ورهطه بنى العجلان :

---

(١) البدور : فى كل بدر ، أى كل شهر .
(٢) العبور : مطالعة البروج .
(٣) سرق : الشقة من الحرير .

إذا التمس الأقوام فى الناس ذكرهم فذكرُ بنى العجلان من أقبح الذكر
وقد غبر العجلانُ حيناً إذا بكى على الزاد ألقته الوليدة فى الكسر
فيصْبح كالخفاش يدلكُ عينهُ فقبح من وَجه لئيم ومن حجر

فجعل للقوم صورة ساخرة فنية . ووصفهم بأنهم ألأم الناس ، يبخلون على أبنائهم بالزاد حتى ليقتلهم الجوع . فيبكون ويدلكون أعينهم بأيديهم ، وتمل الوليدة صياحهم فتلقى بهم فى زاوية البيت . وصورة البخل معروفة فى الجاهلية لكنها هنا أقدر وأقوى حين تروى جوع القبيلة وفقرها ورثاثة النساء وألبستهن الزرية الوسخة وذلك ليصوّر قلة خطرها فى الناس وقعودها بين القبائل مقعد الفقير البائس المحتاج ، وهو من أقذع الهجاء . . .

وبمثل هذه الصور كان الأخطل يرمى خصومَ الأمويين فيحطّ من قدرهم ، ويسيّر سوءاتهم بين الأقوام ، فاعترف له الخلفاء بذلك ، وقرّبوه لجرأته وبذاءة لسانه ، وخاصة حين يصف الأعداء بالخنافس ويتهمهم بالفحش والزنى وضآلة الأنساب . فى ألفاظ بدوية خشنة وصور جاهلية ساخرة . وهو إلى ذلك يقرّر حق الأمويين فى الخلافة ، ويطالب بدم عثمان فيدخل من باب السياسة الواسع .

وأما جرير فكان ساخراً يهجم على الأقوام بصور مضحكة فيعتمد على النكتة فى هجائه ، ويقول فى بنى التيم :

يا تيم إن وجوهكم — فتقنعوا — طبعتْ بألأم خاتم وكتاب
قومٌ إذا حضر الملوكَ وفودُهمْ نُتِفتْ شواربُهم على الأبواب

فهو يحقرهم ويصور ذلهم وخضوعهم واستكانتهم ، وتضرّعهم على أبواب الملوك فلا يصلحون لمجد ، ولا يقفون لعز ، لأنهم الأذلة المستضعفون .

ودخل الخوارج فى هذا الباب كذلك فأدلوا بدلوهم وفخروا وهجوا ، ولكنهم وقعوا فى أساليب الجاهلية . أما الكميت فى هاشمياته فقد صارح بسياسته نحو الخلافة فقال :

أهوَى عليًّا أمير المؤمنين ولا أرْضى بشتم أبى بكر ولا عمرا

ولا أقول وإن لم يعطيا فدكاً بنت الرسول ولا ميراثه كفرا
الله يعلمُ ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

فهو على مذهب علىّ فى السياسة لا يدين للقائمين بالحكم ولا يرى رأيهم فيما هم فيه من التنكيل بآل على . وقد ازداد هذا الشعور فى نصرة العلويين حين قامت الدولة العباسية ، فاستيقظ العلويين ينادون بخلافتهم ، وقد ضاعت آمالهم وخابت مساعيهم ، فيئسوا من العباسيين كما يئسوا من الأمويين ، وذهب شعراؤهم فى الدعوة سرًّا لآل علىّ ، وأخفوا أصواتهم أول الأمر حين كانت الخلافة على حرب مع الروم خارجية وحرب ضد الأحزاب داخلية فانصرفوا مع الشعراء إلى هجاء الأعداء ، ذلك لأنه نشأت حالة جديدة كحال الدول العظمى لعصرنا ، وقامت حروب بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية ، وأصبح الهجاء السياسى بمفهومه الواسع ، فى البقاء أو الفناء — كما يقول دعاة الحروب اليوم — ولكن الشعراء ظلوا على أساليبهم القديمة فى الفخر والحماسة والتنكيل بالأعداء ، وعاجوا ينظرون إلى الأمر من ناحية الإسلام والكفر كما كان الإسلاميون ينظرون إلى الحروب الأولى للنبى ، كذلك كان أبو تمام فى فتح عمورية ، يرسم للروم صورة ساخرة هاجية ، وإنما افتخر وتحمس ، وكتب فى غلبة الدين ونصرة الأسود من المسلمين ورسم ما فعله الجيش الإسلامى فقال :

لم تشرق الشمس منهم يومذاك على بان بأهل ولم تغرُبْ على عزَب

والمتنبى يذم الروم ويرسم انهزامهم أمام سيف الدولة ، يجرون الحديد فى جيوش طويلة ، ولكنهم كلمى وجرحى قد انتثرت أشلاؤهم فى كل واد وجبل ، وقتل أمراؤهم وملوكهم . فراحوا فى الجحور يختبئون من السيوف ويهربون من الموت .

وأبو فراس الحمدانى ذاق من الروم ما ذاق ، فلم يخف بأسهم وشدتهم ، فافتخر وتطرق إلى هجائهم حين قدموا عليه يناقشون فى الدين ويفتخرون بالشجاعة فقال فيهم صورة تضحك وتسلى :

أما منْ أعجب الأشيـــاء علجٌ يعرفنى الحلال من الحـــرام

وتكنفه بطارقةٌ تيوس تبارى بالعثانين الضّخام
لهم خلقُ الحمير فلست تلقى فتى منهم يسير بلا حزام
أناجى كل طبل هرثمى عريض الذقن بصّاق الكلام

فهو يعجب للعلوج كيف يقفون لنقاش المسلمين ، وفيهم البطارقة على لحى طويلة رأى فيها شبح التيوس ، وعلى ألبسة ذات أحزمة تصور فيها خلقَ الحمير ، وأضحكته الذقون والكلام يتطاير من خلالها إذا ما تحدّث القوم . وهو متشيع لآل البيت يهاجم العباسيين فيعدد معايبهم ومثالبهم فى صراحة وقوة ، ويوازن بينهم وبين آل البيت . ثم يهجوهم بقوله :

يا باعةَ الخمْر كفّوا عن مفاخركم عنْ فتية بيعهم يوم الهياج دَمُ
تبدو التلاوة من أبياتهمْ سحراً وفى بيوتكمُ الأوْتارُ والنغمُ
ما فى ديارهم للخمر معتصرٌ ولا بيوتهم للسوء معتصمُ
ولا تبيتُ لهمُ خنثى تنادمهمْ ولا يرى لهم قرْدٌ لهُ حشَمُ

فجعلهم كباعة الخمر المجوس . ورسمهم عاكفين على الغناء والعزف يشربون الخمرَ ويعتصرونه وبيوتهم أوكار للسوء ومعتصم للخبائث . تنادمهم خنثى وتحكمهم امرأة وقرد وخادمة . وهذا من أبلغ الهجاء الذى رُمى به العباسيون . ولطخ به تاريخهم السياسى . ولكنه على ذلك كله يعتمد على الفخر والذم فلا يصوّر صورة ساخرة مضحكة . وإنما يرميهم بالكفر والخنا والإلحاد والخروج عن الدين والبعد عن الشرع ، فهو فى ذلك كأجداده من الشعراء الإسلاميين والأمويين . ومثله الصنوبرى فى ديوانه الكبير المخطوط وكشاجم ، والسرى الرفاء ، وكلهم تناولوا العباسيين بفخر وذم ، فلم يخرجوا بهجاء فنىّ سياسى .

ويبدو أن شعراء العرب قد فهموا الهجاء السياسى على أنه حماسة ، وفخر ، وهجوم . لم يصوّروا فيه أعداءهم ومذاهبهم ، ولم يقذعوا فى ذلك إقذاعهم فى الأعراض والأنساب وبيان المثالب والمعايب ، ورسم الخلال الذميمة كالجبن والبخل والبشاعة . فقد هجم عليهم التتار والمغول والصليبيون

والفرنجة فى العصور الماضية ، ووفد إليهم وباء الاستعمار أخيراً ، فقاموا لذلك كله بحماسة عربية ، وندبوا الماضى الجليل ، واستحثوا الهمم ، وبكوا لما حلّ بهم من نكبات فادحة كخروجهم من الأندلس ، وضياع أراضيهم فى المغرب والمشرق ، ولكنهم لم يصنعوا هذا الهجاء بمفهومه السياسى الدقيق . وإذا قلبت كتب المتأخرين ودواوينهم وجدت الشعراء قد رسموا للغرب صورة قاتمة ولكنهم لم يبلغوا من القوم بحيث حطوا من تاريخهم وأنسابهم وحضاراتهم وصورهم ، وإنما وقفوا منهم مشدوهين لحضارتهم ، فاستحلفوهم بمبادئ الإنسانية والمثل العليا أن يكفوا عن الظلم والعدوان . كذلك كان حافظ حين أعجب بالإنكليز ولكنه رثى لحال المصريين وظلم الاستعمار وندّد بأخلاق قومه فهجا مصر وردد قول المتنبي : « وكم ذا بمصر من المضحكات » ، وحين عرض لدنشواى طلب من الغاصبين الظالمين أن يترفقوا فهم من شعب كبير يحكم الأرض ، وقال :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أقصاصاً أردتمُ أم كيادا

وشوقى ذم الفرنسيين فى الشام والطليان فى طرابلس الغرب ، ولكنه تحمس وبكى ، واستكبر الفواجع ورثى ، ومال إلى الشرقيين والعرب فدعاهم إلى الوحدة والإخاء والوقوف فى وجه الأعداء .

وفى المعاصرين من تناول الغربيين فى شعر قريب من شعر حافظ وشوقى لهذا الباب ، ولكنه زاد فرمى الأمم المستعمرة بالعنت والظلم والاستبداد وإخفار الذمم ، وفى هذا يقول عادل الغضبان :

أوَ كلما جن البغاةُ جنونهمْ ... مطروا العباد الوادعين وبالا
ورموْهمُ بالمهلكات ومزقوا ... أوصالهمْ وتقاسموا الأوصالا
إن عاهَدوا نقضوا وإن همْ واعدوا ... نكثوا الوُعودَ وزيَّفوا الأقْوالا
الحق باسْم الحق يهتضمونه ... والزور باسْم السيف سادَ وَطالا
الحرُّ يحلمُ فى الأذاة فإنْ يَثُرْ ... يَفْرِ الحديد ويحطم الأغْلالا

ومنهم من تشفى منها لمصائبها فقال الأخطل الصغير للدول الغربية :

قرَعَ (الدوتشى) لكمْ ظهرَ العصا   وتحدّاكمْ حساماً ولسانا
إنه كفءٌ لكمْ فانتقمـــوا   ودعونا نســـألُ الله الأمانا

فشمت من هذه الأمم حين دخل ديارها الإيطاليون وعملوا فيها الأفاعيل ، ثم أظهر أن العرب لا يستطيعون أمراً حيالهم فليتركوهم وشأنهم .

وقال عمر أبو ريشة فى مثل هذا المعنى قصيدة طويلة نجتزئ منها هذا البيت فهو يدل على تشابه الفكرة عند الشاعرين . :

رَحمَ الله هتلراً يا فرنسا   كنتِ أشهى حسانه وقيانهْ

ولكنه تناول الموضوع فى فكرة جاهلية تمس العرض ، وتصيب منه مقتلا ، فهو يشمت كزميله بما وقع للقوم خلال الحرب .

وفى السنين الأخيرة تناول شعراؤنا فى شعرهم شذاذ الآفاق فى فلسطين بهجاء ساخر ، وسبّوا من يدعمهم فى بناء وطنهم المستعار على الألفاظ الكاذبة والوعود البراقة . ولكن هذا كله لم يبلغ مرحلة الشعر السياسى الفنى ، فلم يسخر من عظمة الإنكليز وحرية الفرنسيين وبطولة الطليان ، ولم يهزأ بما وقع لهم فى تاريخهم الماضى والحاضر من صَغار وذلة وهوان ، ولم يضحك لدعواهم حماية الشعوب الضعيفة ، ورعاية الأمم الإسلامية والتظاهر بحبها والعطف عليها ، والتفانى فى خدمتها إلى حدّ رغبتها فى سكنى هذه الأقطار وتمدينها بالقتل والنفى والسلب . . . وكلّ ما كان من هذا الهجاء السياسى أنه استصرخ الضمائر ووصف الصغائر ودعا إلى التآخى والعمل والوحدة ، مما نجد آثاره فى سبيل التنفيذ والعمل ، ولكنه أدخل فى باب الحماسة والفخر والأدب والنصح .

الفصل الخامس

الهجاء الديني

المشركون والمسلمون ــ الهجاء في القرآن ــ حسان
ابن ثابت ــ تهكم الأخطل ــ شك المعرى

ظهرت الأديان قبل الإسلام في الجزيرة . وتنوعت مذاهب العبادة فيها ، ولكنها لم تكن تثير بين أصحابها كثيراً من المشاحنات فلم يكن ثمة حرب في سبيل العقيدة كما يبدو ، وإنما كانت أكثر الحروب في سبيل العيش والاقتصاد . ذلك لأن العربي كان يعيش حراً غير مقيد بمعبد أو عقيدة . فقد يصبح على أمر ويمسى على أمر في غالب الأحيان . لذلك لم يصل إلينا هجاء ديني خلال حقبة طويلة من أيامهم .

فلما كان الدين الجديد وقف العرب حيارى أول الأمر . لأنهم حريصون أشد الحرص على حريتهم ، بعيدون عن التقيد بهذا النظام الذي يريد أن يأخذهم بأمور لم يعهدوها . فلما تفهم كثير منهم ما للدين الإسلامي من عقائد وفوائد . وعرفوا بعض غاياته ومبادئه ، وما يريد أن يبلغ بهم إلى جامعة كبيرة ووحدة عظيمة تنهض بهم من شقاق وخلاف وتناحر إلى أخوة واتفاق وتآلف . وأدركوا أن استعباد الفرس والروم كان بسبب بعدهم عن رابطة تربطهم وإلفة تلم شعثهم ــ دخلوا في الدين وآمنوا به . وكان أن انقسموا إلى حزبين كبيرين مسلم ومشرك ، وتعصب كل فريق لحزبه تعصبهم للقبيلة أو أشد ووقع بينهم ما يقع بين الأحزاب في الدنيا من تنافر وتسابق وتنافس . وأخذ النبي يدفع أعوانه ويدعو شعراءه إلى الدخول في هذه الحرب الكلامية الجديدة انتصاراً للمثل العليا ودفاعاً عن المبادئ السامية . فاجتمع حوله رجال وقفوا معه حتى النهاية . وفيهم الشعراء . ينضوون تحت لواء القائد والزعيم والحكيم المثالي والرسول العاقل .

وقد جمع الفريق الآخر شتاته ، ودفع شعراءه كذلك فوقع حجاج وكلام

ونقاش وقصائد فى الهجاء، فتلاحم القتال فقال حسان بن ثابت يصف الحال :

لنا فى كل يــوم من معــدّ سبابٌ أو قتالٌ أو هجــاءُ
فنحكمُ بالقوافى منْ هجانــا ونضربُ حين تختلطُ الدمــاءُ

ذلك لأن هؤلاء الشعراء كانوا يحمون أعراض المسلمين من هجوم خصومهم باللسان ؛ وإخوانهم يحمونها بالسنان ، فكأنها معركة سياسية دينية ، تؤثر فى النصر النهائى ، وتصنعُ فى المحاربين كما تصنع السيوف سواء بسواء ، بل إنها كصحافة العصر ودعايته تحمل من أعباء القتال ما تحمل الجيوش المحاربة . وقد أسرف المشركون فى التحريض على النبى وأعوانه حتى أهدر النبى دم بعض الهجائين منهم ، دفعاً للعنف وحماية من الفضيحة .

وهذا الهجاء الدينى سار فى أسلوبه على سبيل الجاهلية وشعرها ، فاعتمد على الأنساب والقبلية ، وحماية الجار والدفع إلى الثأر ، وذم الجبن ، والعورات والمثالب ، وأضاف إلى ذلك ما قام فى الدين الجديد من تعيير بالشرك ، ومخالفة الله ، وعبادة الأوثان ، والتهديد والوعيد بنار جهنم والعذاب فيها . فاستفاد من القرآن الكريم ، وأخذ من معانيه وآياته فى هذا الباب ، فقد سبق القرآن إلى هذه الحرب وهذا الوعيد فكان المعلم العظيم فى الهجاء الدينى : تناول المشركين والكفار فأصلاهم ناراً حامية وصبّ عليهم سوط عذاب ، فأنذرهم وهددهم وتوعدهم ، فقال فى أبى لهب وامرأته حمالة الحطب ووصف حبلها بأنه من مسد . وهجا الشعراء المشركين فجعلهم فى كلّ واد يهيمون ، يقولون ما لا يفعلون . ووصف المنافقين بالكذب ، وندد بسوء أعمالهم ، وأنهم مرضى القلوب وأنّ لهم عذاباً أليماً ، فهم السفهاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، وهدّدهم بالجنود يأتونهم من فوقهم ومن تحتهم ، وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فلا عاصم لهم من أمر الله[1] .

وهجا اليهود ، وجعل لهم الخزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب ، ولعنهم بكفرهم ، وباءوا بغضب على غضب . وذكرهم بما كان منهم نحو الأنبياء المرسلين ، وأنذرهم بسوء المصير ، ذلك لأنهم اتبعوا ما تتلو

---

(١) انظر نصوص الآيات فى كتاب الجاهلية وصدر الإسلام ، لمحمد حسين ، طبعة القاهرة .

الشياطين على ملك سليمان . ورسم لهم صورة بارعة عظيمة فقال تبارك اسمه : « قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة[١] عند الله ؟ من لعنهُ الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت[٢] أولئك شرّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل » ، وقال تعالى : « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويسعون فى الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين[٣] » .

وأمثال هذه الآيات سلكتْ سبيلها إلى عقول الشعراء وخيالهم ، فأخذوا بصورها وتعلموا من منطقها والنقاش فيها ، واستعاروا تعابيرها ليكسوا خصومهم بالخزى والعار والسفه والضلال وليكشفوا عن الدسائس ، وليهتكوا الأستار ، وليصوروا حال أعدائهم كما صوّر القرآن ، وليعتمدوا على التهديد والوعيد ، كما هدد الكتاب المجيد ، فهم قد أفادوا فى الهجاء بأن أضافوا التاريخ وأخذوا بالصور الكثيرة ، واستعملوا أسلوبه فى الإنذار بيوم القيامة وما ينتظر الكفار من جحيم وعذاب /

والشاعر الذى يمثل الهجاء فى هذا العصر هو حسان بن ثابت الأنصارى ، ولد بيثرب قبل مبعث النبى بنحو من أربعين عاماً ، ونشأ على الشعر واشتهر أمره ، ولم يدخل فى القتال ولكنه كان يُعْمِل لسانه فى الهجاء وفنون الشعر الأخرى ، ورحل إلى الغساسنة متكسباً ، وقضى على شطئان بردى أجمل أيامه ، ودخل فى الإسلام وقد قارب الخمسين أو الستين فيما يقولون ، فراح يدافع عن الدين الجديد ويدفع عنه الخصوم والأعداء بلسان جاهلى ومعان جاهلية ، فقد نشأ عليها وأسنّ ، لذلك كان يعالج الفخر والحماسة ، فيعدد الأيام والانتصارات كما كان يفعل الجاهليون من زملائه ، ولكنه أضاف إليها صوراً إسلامية زيّن بها شعره — كما قلنا — وكان هجاؤه لأعداء النبى من قريش تعريضاً ولوماً وحطّاً من قدرهم ، ينال من أحسابهم وأنسابهم ، ويصممهم ،

---

(١) المثوبة : هنا بمعنى العقوبة .

(٢) الطاغوت : كل رأس فى الكفر .

(٣) سورة المائدة — (٦٠ ، ٦٤) .

بالجبن والخوف . ويرسم انكسارهم : فيوجعهم بأسلوب تغلب عليه البداوة ، على فحش غير قليل فيتناول أم معاوية مثلا بما لا يحسن أن يذكر من أعضائها ، وينسب إليها الفاحشة والعهر . ويتناول عمرو بن العاص بشعر مقذع يعتذر فى ختامه أنه لم يستطع أن يقول ما كان يريد أن يقول :

لولا النبي وقولُ الحقّ مُغْضِبةٌ لمـَّا تركتُ لكم أنثى ولا ذكرا

مع أنه لم يترك لهم شيئاً لم يصبه لسانه . وهو يقول فى هجاء بنى المغيرة :

هلا منعتم من المخزاة أمكمُ . عند الثنية من عمرو بن يحموم
أسلمتموها فباتتْ غيرَ طاهرة ماء الرجال على الفخذين كالموم[1]

فرمى أمهم بالخنا وجعلها غير طاهرة ورسم منها ما لا يرسم معاصر للنبيّ ، ولكن الرسول الكريم أباح له أن يفعل كما ذكرنا . فسار فى سبيله القديمة ولم يبال بهتك الأعراض . فقال فى هجاء قوم :

ذهبت قريشٌ بالعلاء وأنتمُ تمشون مشيَ المومسات الخرَّع[2]
أنتم بقية قوم لوط فاعلموا وإلى خناثكم يشار بإصْبع

وبذلك لم يغادر قبيحة لم يلصقها بهم . ووضعهم موضع الزوانى ثم جعلهم كقوم لوط ، يشار إلى خناثهم بالأصابع فى أقوام العرب . وهذا إقذاع شديد وإمعان فى الفحش قلما نقع على مثله فى هجاء الأعراض مما أوردنا فى غير هذا الفصل . ولكنه يصنع هذه الصور للانتقام المذهبيّ السياسى والتشفى من أعداء الدين الجديد . متخذاً طريقه إلى ذلك بالسخرية والتفنن فى الهجاء والبراعة فى ابتكار الإقذاع على صور مختلفة يستمد بعضها من القرآن وبعضها من ماضيه الأدبى . فيقول فى رهط النجاشى الشاعر :

لا بأسَ بالقوْم منْ طول ومن عظم جسمُ البغال وأحلام العصافير

---

(١) الموم : الشمع .

(٢) الخرع : المرأة التى تثنى لينا .

كأنكم خشبٌ جوفٌ أسافلــهُ   مثقّبٌ فيه أرواحُ الأعاصير[١]

ونحن نعرف أن القرآن الكريم وصف أقواماً كأنهم خشب مسندة كبار الأجسام صغار الأحلام . ولكنّ هذا كله ليس فيه من أمر الدين شيء ، وهو حين يتناول الدين الجديد وأعداءه يقول :

هجوْتَ محمداً فأجبت عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء[٢]
أتهجوه ولستَ له بــكفْء   فشركما لخيْركمـا الفــداء
هجوْتَ مباركاً برًّا حنيفــاً   أمينَ الله شيمتــهُ الوَفاءُ
فمنْ يهجو رسول الله منكم   ويمدحــهُ وينصرُه ســوَاء
فإن أبى ووالــدَهُ وعرْضى   لعرْض محمد منــكم وقاء

وفى هذه الأبيات من المديح والحب للرسول الأعظم ما يجوز حدّ الوفاء والإخلاص . بحيث يضع كلّ شيء فداء له . فيعدّد ما يملك العربى من والد وولد وعرض وقاء للنبي . وهو حين يهجو أبا سفيان يصمه بما كان يصم الجاهليون خصومهم كذلك . فيجعله دعيًّا نيط فى آل هاشم ، ويقول إنه هجين ليس يورى له زَند . ويرمى المغيرة بنَ شعبة بأنه ترك الدينَ والإيمان جهلا . فهو يتبع فى هجائه الدينى ما كان يقوله الهجاءون قبله من صور قديمة كما قلنا . ومثله كعب بن زهير حين افتخر ونافس وهجا غيره ، فلم يصنع شيئاً كثيراً فى الهجاء الدينى .

هذا صدر الإسلام قد عج بالحرب الكلامية فكان هجاء دينى بين المشركين والمسلمين استعر أواره وحميَ وطيسه فقال كل فريق يؤيد مذهبه على طريقة الجاهلية كما رأينا . فلما كان العصر الأموى انصرف الهجاء إلى تأييد المُلك أو معارضته فكان هجاء سياسى تحدثنا فيه وبسطنا أمره فى غير هذا المكان . ولكن الأخطل رسم صوراً جريئة سخر فيها من شعائر الدين فقال :

ولست بصائم رَمضَان طوْعاً   ولستُ بآكل لحم الأضَاحى

---

(١) مثقب : مخرق ، الأعاصير : ج إعصار وهو الرياح تثير الغبار .

(٢) الجزاء : المكافأة .

ولستُ بقائم أبداً أنــادى كمثل العير حى على الفلاح
ولكنى سأشربهــا شمــولا وأسجــد عندَ منبلج الصباح

فنال من التعاليم الإسلامية ، وصوّرها تصويراً فيه زندقة وفيه خفه وطيش ؛ ولكنه كان من الخلافة بحيث لا تمسه يدُ القصاص ، ولا شك فى أنه ساقها عن سبيل المجون كما ساق أبو نواس مثلَ ذلك عن سبيل الخلاعة والقصف . ومهما يكن من أمر ، فقد ظهرت الزندقة خلال العصر العباسى بعد ذلك ظهوراً عنيفاً وقام الإلحاد والشك عن سبيل المجون حيناً أو الجدّ حيناً آخر ، ونهض الخلفاء لعقاب هؤلاء الشعراء فاشتد الهادى فى طلبهم وقتل منهم جماعة . وقد قال أبو نواس :

يا ناظراً فى الدّين ما الأمر لا قدَرٌ صَــح وَلا جبرُ
ما صَح عندى من جميع الذى تذْكرُ إلا الموت والقــبرُ

ولعل الذى أثار ذلك وشجعه شعوبية الفرس واندفاع المستهترين فى قول ذلك وتقبله ، وذهابُ المجوس ، فى حفظ ذلك وترديده ، مذهباً لايدع الشك فى حنينهم إلى دينهم الأول ، كما روى عن آل برمك وابن المقفع .

وقام أبو العلاء المعرى فى القرن الخامس يتناول الدين ويصف المتدينين على أسلوب نادر وفلسفة غريبة ، دفعت القراء إلى الشك ، وتدفعنا إلى جعل أقواله فى هذا الباب على أنها أصابت الإسلام بالنقد ، كما فعل أبو نواس سواء بسواء . ولكنه كان أعمق وأوسع وأشد إيلاماً ، فقال :

إذا رَجع الحصيفُ إلى حجاهُ تهاونَ بالمذَاهب وازدَرَاهــا
وَهتْ أديانُهم منْ كلّ وَجــهٍ فهلْ عقــلٌ تشدّ به عراها

وهو يعمل العقل والحصافة ويتهاونُ بالمذاهب ويزدريها ، ويجدُها واهية من كل وجه ، ثم يقول فى وصف الأديان كلها :

عجبتُ لــكسرى وأشياعــه وغسل الوجوه ببوْل البقــرْ
وقول النصَارى : إله يضَامُ ويظلمُ حيّا ولا ينتــصرْ

وقوْل اليهود : إله يحب رشاش الدّماء وريحَ القترْ
وقوم أتوْا من أقاصى البلاد لرَمى الجمار ولثم الحجرْ
فواعجبا مــن مقـــالاتهم أيعمى عن الحق كل البشرْ

وهكذا تجده يرمى الأديان واحداً بعد واحد فلا يسلم من لسانه دينٌ أو مذهب . ويناقشه مناقشة الشاعر المتعجل . إلى أن يصل إلى الدين الإسلامى فيعجب لرمى الجمار ولثم الحجر . ويجد فى ذلك عمى عن الحق وزيغاً عن الحجى . وهو يقسم العالم إلى قسمين فيقول :

هفت الحنيفةُ والنصارى ما اهتدتْ ويهود حارَتْ والمجوس مضَلله
اثنان أهلُ الأرض ذُو عقل بــلا دين وآخرُ دينٌ لا عقلَ لهْ

فالنصارى والمسلمون فى ضلال . واليهود حيارى والمجوس تائهون والعاقل بلا دين والجاهل متدين ، وهذا هجاء للدين وهجاء للمتدينين . وهو إلى ذلك يصبّ أقواله فى الله وفى صميم تعاليم الدين الإسلامى . فيقول :

يدٌ بخمس مئين عسجداً وُديتْ ما بالها قطعتْ فى رُبـــع دينـــار
تناقضٌ ما لنا إلا السكوتُ لهُ وأن نعــوذ بمــولانا من النـــار

فيعترض على الأحكام . وينتقد الشرع ، ثم يلوذ بالسكون والهمس خوفاً من النار وجزعاً من المسلمين . كأنه يريد أن يفهم سامعيه بأنه أعمل العقل فانتهى إلى هذا النقد ، ونحن ندخله فى هذا الباب لأنه هجوم وسخرية فى ظاهر القول .

وقد قام خلاف بين المذاهب الدينية والفرق . وسار نقاش وهجاء . ولكنه لم يصب الدين فى جوهره . ونهض بعض الصوفية بشعر فيه غمغمة وشك ونقد ، أحاله المفكرون إلى شيء آخر غير الكفر والزندقة .

وفيما عدا ذلك ، رأينا أن الهجاء الدينى بمفهومه الإسلامى الأول قد سكت خلال العصور حين آل الأمر إلى تعصب إسلامى فى الخلافة والحكم . وقد

عمّ الأرجاء حين هاجمت المسلمين فئاتٌ من الغرب تريد له كل شيء إلا ما أعلنت عنه باسم الدين . ووقع بين بعض المسلمين والنصارى مهاتراتٌ لم تصل إلى حد الهجاء الديني . وبذلك يكون هذا الفن قد بلغ ذروته في عصر النبي ، وعاش بعده على ألسنة الشعراء في فترات متقطعة لم تفحش ولم تقذع ، ولكنها لا تسمن كثيراً .

الفصل السادس

الهجاء الاجتماعي

« من طلب عيباً وجده »

سوء الحالة الاقتصادية — قلة الدين — ضعف الخليفة — هجاء الدهر — سقوط المرأة — ذم البلدان — هجاء الممالك والحكومات

رأينا أن العرب نشأوا في الجاهلية على أخلاق اجتماعية حافظوا عليها وتمسكوا بها ، وكانت لهم مثلٌ عليا مدحوا منْ أخذ بها وذموا منْ حاد عنها . وقد عرفنا أن الشجاعة والكرم وحماية الجار والأخذ بالثأر . والذود عن الحمى والحفاظ على العرض كانت صفات متوارثة مقدسة . وعرفنا كيف سعى الشعراء في هجائهم إلى التنقص من إحدى هذه الصفات في المهجو .

ولكنهم حين انتقلوا إلى الشام لم يضيعوا هذه المزايا لأنهم نُقلوا من أهلهم إلى أهل يعرفونهم . وكانوا يجدون عندهم القربى من قبل كأنهم ذوو رحم واحد . وتعلق خلفاؤهم على كثرتهم بإدارة الحكم وتسيير الفتوح فتمسكوا بالعروبة والإسلام كما استطاعوا أن يتمسكوا . وأغضوا عن أشياء تقتضيها سياستهم آنذاك ، لذلك كانت الحياة الاجتماعية على ترفها الجديد النسبي لا تستلزم الجزع والفزع ، لأنهم حملوا معهم هذه العادات القديمة وحنوا دائماً إلى الجزيرة وعيشها وأخلاقها ، فلم تظهر عادات تناقض ما ألفوه ، ولم يكن لشعرائهم أن يتناولوا الحياة الاجتماعية إلاّ بشيء من النقد واللوم قالوه في بعض الحكام ، حين مالوا نحو الترف في العيش ، وتقليد الروم والفرس في رسوم الخلافة ومراسيم الولاية ، فأخذوا عليهم الرياء والنفاق والإنفاق والإغداق كما رأينا ، لكنّ ذلك كان في أشخاص يعدّون ويُعَدّدون .

ولما انتقل الحكم إلى بغداد ، طغتْ على العراق موجة الفرس الطارئين والساكنين فأخذ الحاكم بكثير من أخلاق المحكوم ، وتأثر بتقاليده وعاداته إلى حد ما أول الأمر ، وبرزت مسائل جديدة لم تكن من قبل ، بحكم الإقليم وبُعده عن جو الجزيرة العربية وتخوم الشام والحجاز ، ونشأت أخلاقٌ اجتماعية أنكرها المحافظون والمتزمتون أول الأمر ، وكانوا كثرة فاستمع إليهم الخلفاء وأصاخوا السمع إلى تلبية ما يطلبون ، ولكن الزمان أضعف هذا الشعور ، وفقد الحنين فى كثير من العرب إلى جزيرتهم وإلى أخلاقها ، فانسابت جمهرة الشعب إلى هذا الشرّ الجديد ، وتبدّلت الحياة الاجتماعية حتى لينكرها المؤرخ الدقيق أيما إنكار . فقام الصراع بين الموالى والعرب ونهضت الشعوبية ، وظهر الرقيق ، وفشا وجود الجوارى والغلمان ، وشاع الشراب ، وولدت الزندقة ، وغلبت الثقافة الفارسية ورسومها ، وانقلبت الأوضاع ، فعاش العربى فى جو جديد تنكر له الشعراء المحافظون ونادوا بخطره ، وأنكره العلماء المحافظون وشكوا أمره . ونشأ الهجاء الجديد للحياة الاجتماعية الجديدة .

وقد سمع الناس أشعار الموالى ومن إليهم ينادون بالتحرر ويجهرون بالسخرية ، لتحطيم القديم ووضع الجديد موضع التقديس ، فقال أبو نواس بإبطال العادات الموروثة من الوقوف على الديار وبكاء الدارس من البيوت ، ودعا إلى الشراب والخمر ، وصرح بذلك فى شعره ، وقال بشار مثله ، وتبعهما المجان والخلعاء ، حتى لقد كانوا يهمون بقتل الروح العربية فقال نصر بن سيار فى وصف الخطر الفارسى :

قدماً يدينــون دينـــاً ما سمعتُ به عن الرسول ولم تنـــزلْ به الكتبُ
فمن يكنْ سائـــلا عن أصل دينهم فإن دينهم أنْ تقتـــلَ العـــرَبُ

وناهيك بهذه الصراحة دليلا على ما آلت إليه الحال ، والوضع الذى وصل إليه جشع الشعوبية ، وهم إلى ذلك قد سخروا من العربى ورمزوا إليه بالشيح والقيصوم والثمام ، ووصفوه بأنه يرعى الضأن ويشرك الكلب فى ولغ ما حول البيت ، ومدحوا الانتساب إلى الفرس ، حتى قال قائلهم :

فلستُ بتارك إيوان كسرى لتوضحَ أو لحوْملَ فالدخول
وضبّ فى الفلا ساع وذئب بهـا يعوى وليث وسط غيل

فقد أصبحَ من الزراية فى نظرهم ذكرُ الأماكن العربية والبطولة البدوية وعيش الفلا ، وغدا من الانحطاط ذكر الأنساب الهاشمية فقال شاعرهم :

بنى هاشم عـودوا إلى نخلاتكم فقد صار هذا التمر صاعاً بدرهم
فإنْ قلتمُ رهطُ النبى محمـد فإن النصارى رهطُ عيسى بن مريم

كل هذا ساق الشعراء العرب إلى هجاء الحياة التى وصل إليها الإسلام فى العراق وغير العراق ، فنهضوا للردّ على هذه الأباطيل والذود عن كرامة التاريخ العربى ، وأمجاد الأمة العربية ، والحنين إلى تلك الأخلاق القديمة حيث الإباء والشرف والعزة والكرم والسؤدد ، والبكاء على المساواة والعدالة . فأنشأ شعراؤهم يندبون الإخاء والوفاء ، ويهجون المدن الكبيرة التى يعيش فيها الفقيرُ بائساً ، فقال شاعرهم فى بغداد :

لو حلهـا قارونُ رب الغنى أصبح ذا همّ ووسواس
هى التى نوعَدُ لـكنهـا عاجلةٌ للطـاعم الـكاسى
حورٌ وولدانٌ ومن كلّ ما تطلبه فيهـا سـوى الناس

فذم العيش فيها ، لكثرة البذخ والحاجة إلى المال ، ورأى أنها مكتظة بالولدان والحور ، وليس فيها ناس يعاش بقربهم ، وقال غيره فى ذم بغداد وما آلت إليه :

أذمُّ بغـدادَ والمقـام بها من بعد ما خبرة وتجـريب
يحتاج باغى المقام بينهـم إلى ثلاث من بعـد ترتيب
كنوز قارونَ أن تكون له وعمر نوح وصبر أيوب

وذموا الأسعار الجنونية التى وصلت إليها عاصمة الخلافة ، وهجواْ ما بلغتْ إليه الحياةُ الاجتماعيةُ فقال أبو العتاهية :

من مبلغ عنى الإما م نصائحاً متواليه
إنى أرى الأسعار أسعار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غموم الدهر را ئحة تمر وغاديه
وأرى اليتامى والأرا مل فى البيوت الخاليه
من بين راج لم يزل يسمو إليك وراجيه
يشكون مجهدة بأصـ وات ضعاف عاليه
يرجون رفدك كى يروا مما لقوه العافيه
من يرتجى للناس غيـ رك للعيون الباكيه
من مصبيات جوع تمسى وتصبح طاويه
من يرتجى لدفاع كر ب ملمة هى ما هيه
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العاريه
يا ابن الخلائف لا فقد ت ولا عدمت العافيه
إن الأصول الطيبا ت لها فروع زاكيه
ألقيت أخباراً إليـ ك من الرعية شافيه

كذلك كانت الحاضرة . وكذلك كانت الحياة الاجتماعية صورها الشاعر فى صورة لا تفرح الصديق ولا تزعج العدو . فكانت بارعة الرسم دقيقة التعابير والملامح . وذم العيش فيها حتى كره إلينا حبها ووفق فى ذلك أعظم توفيق ، فكأنه يصف حاضرة عربية ليومنا وقد سقطت فيها الحياة الاجتماعية سقوطاً يحسه المعاصرون فى كثير من أرجاء البلاد العربية ، ولكنهم يعجزون عن ذمها وتصويرها كما فعل أبو العتاهية ، حين رثى للأسعار الغالية والضرورة الفاشية ، واليتامى والأرامل والراجين والضعاف ، والمصبيات الجوع ، والكروب الملمة والبطون الجائعة ، والأجسام العارية ، فقدم أخباراً شافية أشبه بما نسميه اليوم بالتقرير الاقتصادى والوصف الاجتماعى لحياة بلد أو أمة .

هذا من الناحية الاقتصادية ؛ أما من ناحية الدين فقد ندد الشعراء بما حل بالأمة الإسلامية من زندقة ومجون ، فهجوا تلك الحياة وصوروها فى أساليب

مقذعة مخيفة ، حتى لقد فزع أحدُهم حين سمع كافراً يُشبهُ الكعبة بكومة الطعام ، والحجاج الذين يسعون إليها كالحمر الهائمة ، ولمَ لا يفزع الناس حين يصوّر الأصمعي آل برمك بهذه الصورة وهم الأمراء الحكام فيقول :

إذا ذكرَ الشركُ في مجلس أضاءتْ وجوهُ بنى برمك
وإن تليتْ عنـدهُ آيـةٌ أتَوْا بالأحاديث عن مزْدَك

فقد مدحهم من قبل ، فلما نكبوا ذكر الحال التى كانوا عليها ، وهجاهم مر الهجاء لحياتهم التى سلكوها ، وسلكها معهم كثيرٌ من محبيهم والمنافقين حولهم ، وإذا كان الأمراء كذلك فالشعراء وصفوا الخلفاء بأبشع الوصف لحياتهم آنذاك قال بشار :

بنى أميةَ هبوا طال نوْمكمُ إن الخليفة « يعقوبُ بنُ داود»
ضَاعت خلافتكم يا قوم فانتظروا خليفة الله بين الزق والعـود

فهو يعيب على الخلفاء لهوَهم ، وإضاعة الملك بين الزق والعود بينما الشعب يتضور جوعاً ويعيش حياة لا تشرف الحكام . وهجا دعبلُ الخزاعى المعتصمَ لتعصبه للأتراك وحمايته لهم ، فقال :

لقد ضاع أمرُ الناس حين يسوسهم «وصيفٌ» «وأشناسٌ» وقد عظم الخطبُ
وإنى لأرجو أن ترى من مغيبها مطالع شمس قد يغص بها الشربُ
وهمك تركيٌّ عليـه مهانـةٌ فأنتَ لـه أم وأنتَ لـه أبُ

وهذا دليل على تذمر الشعب من حال الحكم وتسلط الأتراك على الخلافة وتسييرهم على هواهم ، حتى لقد قال شاعرهم :

خليفـةٌ فى قفـصٍ بين « وصيف » « وبغـا »
يقـولُ مـا قالا لـهُ كمـا يقـولُ الببغـا

وليس فى الهجاء أبعد من هذا فى تناول الخلفاء وتصوير شأنهم وهوانهم وقلة همتهم فى ذلك العهد ، واضطراب الوضع . فقد كان الخليفة لا يملك أمراً من أمور الحكم ، وما من شىء فى يديه ، وإليه تحمل الأموال ويمنع مما يجبى

إليه ، وظل الحال على ذلك حتى قال المتنبى :

وإنما الناسُ بالملوك وما ... تفلحُ عربٌ ملوكها عجمُ

لأنه لا يرى عندهم أدباً ولا حسباً ولا عهوداً ولا ذمماً ، فكل أرض وطئها العربى أحسّ بأنه غريب الوجه واليد واللسان ، بعد أن كان سيداً فى كل مكان عزيزاً فى كل أرض إسلامية . وليس هذا فحسب ، وإنما استولى على الحكم بعض النصارى فاستاء الشعب وتذمر ، حتى قال شاعرهم يهجو وزيراً مسيحياً بمصر :

تنصرْ فالتنصرُ دينُ حقّ ... عليه زَمانُنا هذا يدُلُّ
وقُلْ بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطلُ
فيعقوب الوزير أبٌ ، وهذا الـ ... عزيز ابنٌ وروحُ القدس «فضل»

وذلك منتهى السخرية والزراية بالحكم المتقلب والحالة القلقة ، والانحطاط السائد ، وتبلبل الأمور ، وفوضى الأعمال ، والإنفاق الشديد بغير تعقل ، فقد سكن الأمراء والخلفاء والملوك قصوراً تحتل مساحات شاسعة من الأرض ، وليس للفقراء منزلٌ يأوون إليه ويسكنون عنده ، فقام ترفٌ لا حد له وفقرٌ لاحد له ، ونشأ من ذلك حسد وخبث ، وكذب وخديعة ، ولذائذ بهيمية ضاعت معها الأعراض وفسدت الأخلاق ، وساعد عليها المتعالمون وأنصار الحكم المأجورون ممن يدعون زعامة الدين ، وذلك لأن الحكام غرقوا فى شهوات النفس والجسد ، وناموا عن شعبهم المسكين المريض الجائع الفقير ، فكفر الشعب بالمثل العليا ، ووقعت الرعية فى أنياب الإقطاع والظلم ، وكان للذئب مرتع فى الغنم يسيم حيث يريد .

لذلك نهض الشعراء إلى هجاء الحياة الاجتماعية ووصفها بما آلت إليه من تدهور فى الأخلاق عند الرجال والنساء ، وإسفاف فى العلم وكفر فى الدين ، فقال ابن لنكك البصرى :

يا زماناً ألبسَ الأحـ ... رارَ ذلا ومهانهْ

لستَ عنــدى بزَمــان إنمــا أنت زمــانه°(١)
كيفَ نرْجــو منــكَ خيراً والعلا فيــك مُهــانه°
أجنــونٌ مــا نــراه منكَ يبــدو أمْ مجانه°

وقال كذلك :

نحن والله فى زَمــان غشــوم لو رأيناه فى المنام فــزعنا
يصْبحُ الناس فيه من سوء حال حق منْ مات منهمُ أن يهنا

وهكذا سئِم الشعب حاله وتمنى الموتَ ، لأن الأحرار فى ذل ومهانة ، والعلا أصبحت مُهانة . والزمان غدا غشوماً ، كأن الناس فى حلم مفزع يصبحون على حال ويمسون على أسوأ منه فضج الشعراء بهجاء الأيام والزمان والحياة ، وبكوا الأخلاق الفاضلة ، وندبوا المثل التى كان يعيش لها العربى فى سبيل المجد والخلود . فقال المتنبى يهجو الزمان والدنيا :

لحا الله ذى الدنيا مناخاً لراكب فــكل بعيد الهمّ فيها معــذب

وقال كذلك :

ودهرٌ ناسُه ناسٌ صغــارٌ وإن كانتْ لهمْ جثثٌ ضخــامُ
وما أنا منهم بالعيش فيهــم ولــكن معدنُ الذهب الرغــامُ
أرانبُ غيرَ أنهــمُ ملــوكٌ مفتحــةٌ عيــونهــمُ نيــامُ

فكلّ الذين يراهم الشاعر كانوا فى نظره صغار القدر والهمم ، وإن كانوا غلاظ الأجسام ، وهو يقيم بينهم كما يقيم الذهب فى التراب ، وأما ملوكهم فهم الأرانب حقيقة ، ولكن عيونهم نيام وإن بدت مفتحة فى غالب الأحيان . وهو يرى فساد المجتمع بفساد ملوكه وحكامه :

ساداتُ كلّ أناس من نفوسهمُ وسادةُ المسلمــينَ الأعبدُ القزَمُ

ولا تسل عما تناوله الشعراء من عادات الزمان وفساد الضمائر حين شكوْا

---

(١) الزمانة : العاهة .

قلة الوفاء والصداقة فأمعنوا وألحوا وظنّوا أن الأخلاق الفاضلة قد ماتت بموت الأجداد ، فقال أبو فراس الحمدانى :

بمن يثقُ الإنسان فيما ينوُبه ومن أين للحرّ الكريم صحابُ
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئاباً على أجسادهن ثيـــابُ

وأسرف فى لوم الزمان وأهله فقال لأخ من إخوانه :

وأنت أخٌ تصْفو ونصْفـــو وإنما الـ أقاربُ فى هذا الزمـــان عقاربُ

فقد ماتت الثقة ، وأصبح الناس ذئاباً والأقارب عقارب ، لا يتقربون إلا للغنى الموسر ولا يسعون إلا حيث يجدون الحاجة فيقول الشاعر نفسه :

قومٌ إذا أيسرْتُ كانوا إخـــوة وإذا تربتُ تفـــرقوا وتجنبـــوا

ويقول المتنبى فى ذم هذا الزمان وهجائه :

إنالفـــى زَمن تـــرْكُ القبيح بـــه من أكثر الناس إحسان وإجمالُ

وهكذا أدبر الزمان وانقلبت الأمور ، فأصبح الممسك عن قبيح الأفعال والمتأخر عن مذموم السعى مشكوراً مذكوراً ذا فضل يؤثر وإحسان يشكر .

ورأى الغزى أن الفضل قد انقضى فقال :

هبْ أن أهل الفضْل عز وجودهم أخلا بساطُ الأرض من إنسان

ولعل الشعراء فى هذه الأزمان المذكورة نظروا إلى الدنيا فما وقعت عينهم على أحد يسمى إنساناً ، والذنب فى ذلك كله ذنب الزمان فخصّوه بهجاء متتابع على العصور ، لأنهم رأوا أن الأيام لا ترفع إلا الفاسدين ولا تخفض إلا الكرام ، ويئسوا من صلاحه وتشاءموا من وجودهم فيه ، وحنوا للماضى لأنهم تصوروه أحسن وأصلح ، والمعرى يجيبهم بهجاء بنى الإنسان قاطبة فيقول فى آدم :

إذا ما ذكرْنا آدماً وفعالهُ وتزويجه بنتيه لابنيه فى الخنا

علمنا بأن الناس من نسل فاجر   وأن جميع الخلق من عنصر الزنى

ثم يقول فيه :

والناسُ قد فطرُوا مذْ كانَ أوّ   لهمْ على الفساد فغنٌّ قولنا فسدوا

لأنه هجا آدم والأوائل ، ولم يشفع لأحد عنده خير أو برّ ، ونظر إلى الدنيا بمنظار أسود فلم يرَ إلاّ الأخلاق الفاسدة ، والعقول الجاحدة ، والقلوب الكافرة ، فرماهم واحداً بعد الآخر ، وأصاب الحكام ورجال الدين والمرأة والرجل على السواء ، ووجد أن الزواج مضرةٌ وأن النسل مفسدةٌ وأن الخير للإنسان أن يعقم . فقال فى الحكام :

مل المقامُ فكمْ أعاشرُ أمة   أمرَتْ بغير صَلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   وعدَوْا مصالحها وهمْ أجراؤها

ونظر إلى أصحاب الدّين فكشفَ عن كثير من نواياهم وعمّهم بنظرته فقال :

وقد فتشتُ عنْ أصْحاب دين   لهم نسكٌ وليس لهم رياءُ
فألفيتُ البهائم لا عقولٌ   تقيمُ لها الدليل ولا ضياء

فوجد فى هؤلاء رياء فى الدين وتظاهراً بالنسك ، فشبههم بالبهائم لا عقول لهم تقيم الدليل على تفقههم ولا ضياء ينير قلوبهم ، ثم رسم بعض الوعاظ لعصره يهجوه :

يحرمُ فيكم الصهْباء صُبحاً   ويشربها على عَمْد مساء
تحساها فمن مزْج وصرف   يعل كأنما وَرَد الحساء
يقولُ لكمْ : غدَوْتُ بلا كساء   وفى لذاتها رَهنَ الكساء

ولعله أسرف فى التشاؤم ، فلم يكن العصر يختلف عن غيره من العصور ، والناس هم الناس فيهم الصالح والطالح ، فخلط بينهم وحكم عليهم فى قسوة فجعل رجال الدين يشربون فى المساء ويرهنون فى سبيل الخمر الكساء ، وهم

ما يزالون يعظون الناس بتحريم الخمرة والدعوة إلى النسك والزهد والصلاح ، وهم شرّ الناس يضربون أسوأ الأمثلة ، ويفعلون ما ينهون عنه ، كأنهم مشركون أو كفار يتظاهرون بالدّين ، فإذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . ورمى النساء بما رمى به الرجالَ فوصفَ عفتهن على هجاء غريب :

وَلسنَ بدَافعات يوم حرب ... ولا فى غارة متغشمات
وليس عكوفهن على المصَلى ... أماناً من غوادرَ مجرمات
ولا تحمدْ حسانك إنْ توافتْ ... بأيد للسطور مقومات

ولعله يريد طبقة خاصة من النساء جاورته وعرفته ، وجاورها وسمع بها تسعى إلى الحلى تتزين به فتنة وإغراء ، وتسعى إلى البعولة وغير البعولة . لذلك حرّم عليهن القراءة والكتابة وألزمهن قعود البيت . ورأى فى خروجهن من الدار خطراً أشد الخطر . واكتفى بأن ذم كل البلاد وهجاها فلم ير الخير فى قطر ، ولم يجد النعمى فى بيت ، ولم يجد الإنسان فى معاصر أو ماض فقال :

كل البلاد ذميمٌ لامقام به ... وإنْ حللتَ ديار الويل والرهم
إن الحجازَ عن الخيرَات محتجز ... وما تهامةُ إلا معدنُ التهم
والشامُ شؤمٌ وليس اليمنُ فى يمن ... ويثربُ الآن تثريب على الفهم

فليس فى ديوان العرب أهجى للعرب من شاعر المعرّة ؛ جمع فى دفتىْ قصيده بين هجاء الدّول العربية وذمها فاشتق من اسمها خسة ونقيصة ، فالحجاز محتجز عن الخيرات والشام شؤم واليمن بعيد عن اليمن ، فليس فى الدنيا خير ، وليس فى الحياة إلا التعب ، وهذا بعدٌ فى طلب المثالية وغلو فى تنقص الناس ، لأنهم أبناء آدم وآدم من تراب ، وليس فى التراب أحسن من هذه الطينة . ولسنا نفتش عن الفلسفة والدّقة والصحة فى أقوال هؤلاء الشعراء ، وإنما نستعرض ألوان الهجاء للحياة الاجتماعية خلال العصور ، لنتبين كيف كانت، وكيف عالجها هؤلاء الأدباء ، ولننتهى إلى أن بعضهم أقذع وأفحش وسبّ حتى بلغ الغاية فى الهجاء والذروة فى السباب ، وقد رأى الشاعر الخالدىّ أن يصف قومه المعاصرين بأسلوبه فقال :

أرى ثياباً وفى أثنائها بقرٌ بلا قرُون وذا عيبٌ على البقر

ففضل البقرَ على الناس . وقديماً وصم الجاهليون خصومهم فجعلوهم تيوساً وكلاباً وخنازير . فاستعملوا الحيوان فى رسم صورة الإنسان المهجوّ ، ثم شوهوا صورة الحيوان فاختاروه بشعاً قبيح المنظر لينالوا من عدوّهم إلى أبعد الحدود .

وقد كثرت شكوى الشعراء من الناس وأخلاقهم وطبائعهم ، وفشا الذم من الزمان والأهل والأقارب والأصحاب . والبلد والقطر والإقليم فقالوا كثيراً مما لا يحصيه عادّ ، حتى كان لهم باب فى هجاء المدن والبلاد ، دخله شعراؤهم ليحطوا من قدر المكان وسكانه . فقال ابن عنين يهجو مدينة بخارى :

آليت لا آتى بخارى بعدها ولو انها فى الأرض دار خلود
فلقدْ حللتُ بها حنيفاً مسلماً ورحلتُ عنها باعتقاد يهودى

وكذلك تسوء المدينة فى عين ساكنها حتى ليتمنى أن يستبدل بدينه ديناً آخر بل إنه ليقول إن هذا البلد لتخرجه عن دينه لشدة ما يتحمل من أهلها فى الغلاظة والإجحاف ونكران الجميل أو غير ذلك من أخلاق وطبائع ، ولقد هجا حلب الشهباء كذلك فقال فيها :

لا عادَ فى حلَب زَمانٌ مر لى ما الصبح فيه من المساء بأمثل
سيان فى عرصاتها رأد الضحى عندى وديجور الظلام المسبل
فى معشر لعنوا « عتيقاً » لاسقوا[1] صوبَ الغمام ومعشر لعنوا « على»
قومٌ عهودُ رجالهم محلولةٌ . أبداً وعهدُ - نسائهم لم يحلل

فقد تساوى فى نظره صباحُ المدينة ومساؤها . والظلام والنور وخلط القوم فيها بين أبى بكر وعلىّ . فسبّوا كلا منهما ولعنوه فلا مبدأ لهم ولا عهد لرجالهم ، وهذا هجاءٌ قوى مر يشين البلد وينال منه .

وفى العصر الحديث تناول الشعراء بلادهم باللوم والهجاء والعتاب ، كما

(١) العتيق : أبو بكر الصديق ، لجماله

تناول القدماء . فى رقة أسلوب وعبارة ، تشرب من العصر الذى عاشوا فيه ، فقال إسماعيل صبرى فى مصر :

إننى أستغفرُ الله لكمْ آل مصر ليسَ فيكمْ منْ رجال
فلَّ غرْبى ما أرى منْ نوْمكمْ ورضاكمْ بوجود الاحتلال[1]
بحَّ صَوتى داعياً مستنهضاً صارخاً حتى تولانى الكلال[2]
لم أجدْ فيكم فتى ذا همة إن عدا الدهرُ عداَ أوْصال َصَال

ووصَمَ المصرّيين أهله وقومه بالنوم والغفلة والرضى باحتلال الأجنبى فقد دعا واستنهض حتى كلّ لسانه وتعب بيانه فلم يجد ذا همة يجيب النداء ويعدو صائلا على الأعداء . وهذه حرقة مخلص وصيحة محبّ يهيب بأمته أن تثور وأن تستفيق . ترجمها فى ذمّ وهجاء أباحهما لنفسه حبًّا واندفاعاً فى سبيل الخير لا الشرّ .

ومثله حافظ إبراهيم فقد تناول آدم ونوحاً ، وأرسل الحسرة والزفرة أسفاً لما وصلتْ إليه حالُ مصرِ فقال :

فما أنْتِ يا مصرُ دار الأديبْ ولا أنْتِ بالبلد الطيب

إلى أن يقول :

وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها « أبو الطيب »
أمور تَمـرُّ وعيش يُمـرُّ ونحنُ من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب
وصحْف تطن طنينَ الذباب وأخرى تشن على الأقرَب
وهذا يلوذُ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرْحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنبُ فى ورده الأعذَب
وهذَا يصيح مع الصائحيَن على غير قصْد ولا مأرَب

---

(١) فل السيف : ثلمه وكسر حده ، الغرب : حد السيف ونحوه ، وهنا بمعنى ضعضع قوتى .
(٢) الكلال : التعب .

ولن تجد رساماً للحياة الاجتماعية أدق من هذا الشاعر حين رأى فى بلده المضحكات من أمور عجيبة ، تجدّ الدنيا ويلهو الشعب ، فهو يفر من الصالحات ، وصحفه تطنّ طنين الذباب فى مقالاتها السخيفة . وقد انقسمَ الناسُ فبعضٌ قد تمسك بالأمير ، وبعض قد لجأ إلى الأجنبي ، وبعض يصيح بغير قصد أو مأرب . وهذه علةٌ من العلل فى حياة الشرق منذ زمن قريب . هجاها الشاعر لعلّ قومه ينصرفون عن المخازى ويتعلقون بالعلا . ولعله لو عاش اليوم لانصرف إلى لون آخر من الشعر ، وقد أجاب المصريون نداء المجد وأصاخوا لصيحة الخلود .

هذا فى مصر ، وأما فى سورية فقد هجاها هاج فوصف حياتها خلال الانتداب فقال :

باع الأديب كتاب «الصرف» من طفر   وعضه الظالمان البرد والسغب
ولا ترى شارياً فى السوق قاطبة   إلا المـآمير بالمال الذى نهبوا

ذلك أن العالم أفلس فباع كل شىء ، وغلبه البرد والجوع وأصبح الموظفون وحدهم ينعمون بالمال الذى نهبوا . ثم وصف الحكومة والبرلمان آنذاك فقال :

قالوا حكومتنا شورى فقلت لهمْ   أنعمْ وأكرم فهذا القصدُ والأربُ
فى البرلمان رجالٌ ليس ينقصهمْ   عن البهائم إلا السرّجُ والذنبُ
فللمساكين ما جادوا بخردلة   إلا وكانت من الشىء الذى نهبوا
هل يقبلُ الشرْعُ بالخنزير تضحية   يا ليت ما نهبوا منا ولا سلبوا

فهو يرى أعضاء البرلمان يسيئون فى كل شىء ، وما لهم من فضل إلا الراتب الذى يقبضون ، فهم فى تضحيتهم كالخنازير حين يهبون أقل الأشياء . ورسم التوظيف لذلك العهد فهجاه فقال :

بنتَ الحكومة هلْ إليك طريقُ   لا شك دُونَ وصَالك التمليق
أوَليس مهرَك يا فتاة ثلاثةٌ :   الكذب والتدليس والتلفيقُ
وكما علمت شمائلى وتفضلى   خالى الوزيرُ وعمّىَ البطريق

فمضيت لا ألوى على شىء سوى　　قبض المعاشِ وما أقول حقيقُ

فرأى أن السبيل إلى الحكومة كذب وتدليس وتلفيق ، وقربٌ من الوزير ونسبٌ إلى رجال الدين المتنفذين ، وهو إذا دخل الوظيفة دخلها لقبض المعاش لا يصنع خيراً ولا يجرى أمراً ، كأنه شبحٌ يؤجر وشخص يسخر . والهجاء فى لبنان للحياة الاجتماعية[1] كان شديداً تناولَ الولاة العثمانيين ، وحال البلاد والمجاعة ، والتفرقة ، ولا سبيل إلى إيراده هنا لضيق المجال .

ولو أحصينا ما قيل فى هجاء الحياة الاجتماعية خلال العصور العربية لوقعنا على ديوان جامع واسع فى رسم هذه الحياة سخرية وهزؤاً وشكوى ، ليست من باب الوصف لأنه لا يصف المدينة والناس والألوان الزاهية والصور الحلوة والإعجاب الخالص والفتنة والسحر ، كما رأينا فى الكتاب الذى خصصناه لهذا النوع ، ولكنه جعل ذلك للنقد والتعبير سعياً وراء الإصلاح أو حبًّا بالتشفى والانتقام والضحك والعبث .

وهذا الذى رأينا من أبواب الهجاء قد يكون صدقاً أو كذباً — كما قلنا — ولكنه لن يكون عدة خالصة للمؤرخ العالم يتناولها كحقيقة خالصة أو مسألة علمية صرفة ، ما لم يُعمل فيها معولَ النقد والتمحيص ، وينظر إليها من خلال الشاعر وعصره وظروفه ونفسيته وعقله ، مرضه أو صحته ، فقد يدفع إلى الهجاء أشياء كثيرة ، منها الفقر والحرمان ، أو مركبات النقص أو عواطف الاستعلاء أو الاحتقار والزراية ، أو الهزء والسخرية ، وربما دفع إليه استبطاء الوعد ، واستنجاز العهد ، أو العتب والتأنيب والذمّ والتعريض ، بل ربما أوقدت ناره كراهية الناس جميعاً من تشاؤم ونظر أسود ، أو حمق أو طيش ، أو سفه وجنون ، فليس كل الذى يقال جديراً بالالتفات والاحترام .

ولم يتبسط هذا الكتاب فى الهجاء لطبقات الناس وميولهم والمهن والحرف

---

(١) انظر ما أورده الأستاذ عادل الغضبان فى كتابه عن « الشيخ نجيب الحداد» ص ٨ يهجو المتصرف آنئذ .

والصناعات[1] . وتصويرها تصويراً مقذعاً . ذلك لأنه لم يهدف إلى استيعاب الألوان كلها ، وإنما إلى بسط ألوان من الهجاء الفنى . ليرسم القدرة الشاعرية أو انحطاطها فى باب الهجاء على اختلاف العصور العربية .

(١) عندنا ديوان ضخم فى هجاء المعلمين للعصور القديمة والحديثة ، ومن مقذع أقوالهم فى المعلم :

معلم صبيـــان يروح ويغتدى على أنفه ألوان ريح فسائهم
وقد أفسدوا منه الدماغ بفسوها ورفعهم أصواتهم فى هجائهم

ذلك فى القديم ، وأما فى الحديث فقصيدة الشاعر إبراهيم طوقان مشهورة فى هجاء المهنة ، وهى فى ديوانه فليرجع إليها من شاء التوسع .



الفهرست

صفحة

رقم الإيداع		١٩٨٢/٣٧٧٣
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠١٣٣-٢	ISBN

١/٨٢/١٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)





مجموعة
فنون الأدب العربى

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربى ألواناً من الفنون الأدبية التى عالجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره . فهى تقف أمام كل فن أدبى فتعالجه فى جزء أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته العربية فى تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى . . . ولكنها تعالج الأدب العربى على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع .. وهكذا ستكبر هذه المجموعة على قدر مافى الأدب العربى من فنون .

صدر منها :

- فى الفن الغنائى : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الموشحات والأزجال .
- فى الفن القصصى : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- فى الفن التمثيلى : المسرح .
- فى الفن التعليمى : النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال .

تحت الطبع :

- فى الفن الغنائى : الزهد والتصوف .
- فى الفن القصصى : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .
- فى الفن التمثيلى : الفاجعة والمأساة ، الملهاة .
- فى الفن التعليمى : منظومات الشعر .